الفصل الخامس: التقلبات الاقتصادية وسبل معالجتها

(أزمة عام الرمادة)

تمهيد: يتعرض المجتمع المسلم-كغيره من المجتمعات-للتقلبات الاقتصادية، فمرات يكون الرخاء والرفاهية، ومرات تكون الشدة والجدب، وقد أشار القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى تقلب أحوال المؤمنين، قال الله تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون}(١)، وقال تعالى: {ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين}(٢)، وقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:[عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له](٣).

إن المجتمع المسلم وإن تعرض للتقلبات الاقتصادية، وغير الاقتصادية، إلا أن ثمة فوارق بينه وبين المجتمعات غير المسلمة؛ من حيث سبل معالجة تلك التقلبات، ومن حيث النتائج النهائية لها، وبيان ذلك فيما يلي:

أ-عندما يكون المسلم في رخاء وعافية، فإنه لا يصاحب ذلك بطر ولا طغيان، بل يقابل تلك النعم بالشكر؛ فيزيد الله له الخير في الدنيا والآخرة.

وعندما تحل به مصيبة فإنه يصبر ويحتسب، فيكون في ذلك رفع لدرجاته، وتكفير لسيئاته، يبين ذلك الحديث الشريف:[ما أصاب رجلاً من المسلمين نكبة فما فوقها، حتى ذكر الشوكة إلا لإحدى خصلتين: إما ليغفر الله له من الذنوب ذنباً لم يكن ليغفره له إلا بمثل ذلك، أو يبلغ به من الكرامة كرامة لم يكن له ليبلغها إلا بمثل ذلك](٤).

وأما غير المسلم فيقابل النعم بالبطر والطغيان، ويقابل الشدة والمصيبة بالتضجر والأحزان، فيكون ذلك عليه وبالاً على وبال.

ومن ناحية أخرى فإن المسلم عندما تحل به المصائب، يتوجه إلى ربه معترفاً بذنبه، ويرجو رحمة ربه، ويأخذ بالأسباب المباحة، أما غير المسلم فلا يعرف ربه في الرخاء، وقد يتوجه إليه في الشدائد فقط.

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية (٣٥).

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٥٥).

(٣) أخرجه أحمد: المسند، حديث رقم (٢٣٤٠٦)، مسلم: الصحيح، حديث رقم (٢٩٩٩)، والآيات والأحاديث في الموضوع كثيرة، انظر: النووي: رياض الصالين، ص٥٣-٦٦.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات(٢٥١)، البيهقي:شعب الإيمان، حديث رقم (٩٨٥٤)، وسنده ضعيف، انظر: المنذري: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف(١٧٧/٤)، والحديث وإن كان سنده ضعيفاً، فإن معناه تشهد له أحاديث أخرى، انظر: المنذري: المرجع نفسه، الأحاديث رقم(٤٩٩٢-٥٠٠٢)، والنكبة: المصيبة، انظر :لسان العرب(نكب).

ب-بناء على ما سبق، فإن نتائج الرخاء والشدة أعمق مما قد يظهر للناس في الدنيا؛ لأنه قد يصاحب النعمة بطر وطغيان، فتكون نتيجتها حسرة وخسراناً في الدنيا والآخرة، وأيضاً قد يصاحب الشدة صبر وإيمان، فتكون نتيجتها فوزاً وسلواناً في الدنيا والآخرة.

ج-إن الإيمان بما سبق يجعل المسلم على يقين بأن تطبيق الإسلام في مجالات الحياة كافة-ومنها الاقتصاد-يحقق الخير للمسلمين، سواء أكانوا في رخاء أم في شدة، بل قد يكون النجاح في الصبر على الشدة أكبر منه في حال الرخاء(١).

إن القول بما سبق تقريره أولى مما قد يقال-تحت تأثير العواطف-بأن تطبيق الاقتصاد الإسلامي يعني دورات متتالية من الرخاء والرفاهية، لا يشوبها ركود ولا كساد، ولا يتخللها انقطاع، ثم يكون الواقع غير ذلك؛ لحكمة أرادها الله.

وفي الأخير فإنه ينبغي العلم بأنه مع الإيمان والتقوى تحصل البركات في القليل والكثير، قال الله تعالى:{ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض}(٢).

إن(البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى بركات في الأشياء، وبركات في النفوس، وبركات في المشاعر، وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن، وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال)(٣)، (إن البركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح ...وكم من أمة غنية قوية، ولكنها تعيش في شقوة؛ مهددة في أمنها، مقطعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق، وينتظرها الانحلال؛ فهي قوة بلا أمن، وهو متاع بلا رضى، وهي وفرة بلا صلاح، وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد، وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال)(٤).

وفي ضوء المفهوم السابق ستكون في هذا الفصل دراسة بعض التقلبات الاقتصادية التي حدثت في خلافة عمر-رضي الله عنه-، وتمثلت في وقوع مجاعة عامة، وسيتم التعرف على كيفية معالجة عمر-رضي الله عنه-لتلك التقلبات، وفي هذا مثال لمعالجة التقلبات في ظل الاقتصاد الإسلامي، وستكون دراسة ذلك الفصل في مبحثين:

المبحث الأول: طبيعة التقلبات الاقتصادية.

المبحث الثاني: معالجة التقلبات الاقتصادية.

---

(١) انظر:سيد قطب: في ظلال القرآن(٤/٢٣٧٧-٢٣٣٧٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية(٩٦).

(٣)سيد قطب: المرجع نفسه(٣/١٣٣٩-١٣٤٠).

(٤) المرجع نفسه(٣/١٣٣٩).

المبحث الأول:طبيعة التقلبات الاقتصادية

من المهم معرفة طبيعة تلك الأزمة الاقتصادية التي حدثت في عهد عمر-رضي الله عنه-ومعرفة أسبابها وآثارها، وهذا هو موضوع هذا المبحث، الذي سيدرس في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم التقلبات الاقتصادية.

المطلب الثاني: أسباب أزمة الرمادة.

المطلب الثالث: آثار أزمة الرمادة.

المطلب الأول: مفهوم التقلبات الاقتصادية

أولاً:المفهوم الاقتصادي للتقلبات:

يتعرض النشاط الاقتصادي لتقلبات متنوعة يكون لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية، ومن أهم ذلك آثارها في التشغيل، والإنتاج، والدخل، والأسعار، ويقسم الاقتصاديون التقلبات الاقتصادية إلى أربع مجموعات([1]):

١-تقلبات موسمية: وهي التي تصيب بعض النشاطات الاقتصادية، ذات الطبيعة الموسمية؛ حيث يزداد نشاطها في موسم، ويقل في مواسم أخرى.

٢-تقلبات عرضية: وهي تغيرات غير منتظمة، وتنشأ عن أحداث وظروف طارئة؛ إما في مجالات كونية كالقحط والجدب والزلازل والأوبئة والبراكين، أو مجالات اجتماعية كالحروب، وقد تنشأ نتيجة الاختراعات والتجديدات.

٣-تقلبات اتجاهية(مزمنة): وهي التغيرات التي تحدث ببطء، وتنتشر لفترة طويلة من السنين، ومثالها التغيرات السكانية.

٤-تقلبات دورية: وهي التقلبات التي تحدث بانتظام في فترات متعاقبة من الرواج التجاري والكساد التجاري.

ثانياً: تعريف عام الرمادة:

يمكن التعرف على المراد بعام الرمادة من وصف المؤرخين لها، فالطبري يقول: (أصابت الناس مجاعة شديدة ولَزْبة، وجدب وقحط، وذلك هو العام الذي يسمى عام الرمادة)([2])، ويصف ابن سعد عام الرمادة بقوله: (أصاب الناس جهد شديد، وأجدبت البلاد، وهلكت الماشية، وجاع الناس،

([1]) انظر:د.حسين عمر:موسوعة المصطلحات الاقتصادية، ص٧٥، د. محمد عبد المنعم عفر: الاقتصاد الإسلامي(٤/٢٧٠، ٢٧١)، وغير خاف أن التقلبات قد تكون أزمات وقد تكون رخاء، والتقلبات التي ستدرس-هنا-تقلبات عرضية، تتمثل في أزمة اقتصادية، كما سيتضح بعد قليل .

([2])تاريخ الأمم والملوك (٥/٧٥)، ومعنى لزبة:شدة وقحط، انظر: القاموس المحيط(لزب).

وهلكوا، حتى كان الناس يُرَون يستفون الرمّة، ويحفرون نُفَق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها)([1])، ويقول ابن كثير: (كان في عام الرمادة جدب عم أرض الحجاز، وجاع الناس جوعاً شديداً)([2])، ويقول ابن خلدون: (أصاب الناس سنة ثمان عشرة قحط شديد وجدب، أعقب جوعاً بَعُدَ العهد بمثله، مع طاعون أتى على جميع الناس)([3]).

مما سبق يمكن تعريف عام الرمادة بأنها أزمة اقتصادية تمثلت في مجاعة عامة شديدة، شهدتها بعض مناطق الخلافة في عهد عمر رضي الله عنه([4]).

وأما سبب تسمية تلك الأزمة بالرمادة ففيه عدة أقوال:

١- فقيل إنها سميت عام الرمادة؛ لأن الأرض اسودت من قلة المطر، حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد)([5]).

٢-وقيل: لأن الأرض كانت تسفي الريح تراباً كالرماد([6]).

٣- وقيل: إن ذلك من الهلاك؛ يقول ابن منظور: (رمد وأرمد إذا هلك، وعام الرمادة معروف؛ سمي بذلك لأن الناس والأموال هلكوا فيه كثيراً...)([7]).

ثالثاً:الحدود الزمانية والمكانية لأزمة الرمادة:

١-الحدود الزمانية:

اتفقت معظم الروايات على أن أزمة الرمادة كانت في سنة ثماني عشرة([8])، وثمة رواية تفيد أنها كانت في آخر سنة سبع عشرة، وأول سنة ثماني عشرة([9])، وفي رواية أنها كانت بعد حج سنة ثماني

([1]) الطبقات الكبرى (٢٣٥/٣)، وقوله: يستفون الرمة؛ أي يقمحون العظام البالية، انظر: القاموس المحيط(سف، رمّ).

([2]) البداية والنهاية(٩٢/٧).

([3])ابن خلدون:تاريخ ابن خلدون(٥٣٠/٢)، وانظر: اليعقوبي:تاريخ اليعقوبي(١٥٠/٢)، خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص١٣٨، ابن الأثير: الكامل في التاريخ(٣٩٦/٢)، ويلاحظ أن المؤرخين يذكرون معنى الأزمة وأسبابها وآثارها.

([4]) يمكن تصنيف تلك الأزمة-حسب تقسيمات الاقتصاديين-بأنها تقلبات عرضية؛ باعتبار أن ذلك الحدث لم يكن بالصورة المعتادة في التقلبات الموسمية، كما سوف يتضح من خلال دراسة تلك الأزمة.

([5]) ابن كثير: المرجع السابق(٩٢/٧)، وانظر: ابن سعد: المرجع السابق(٢٣٥/٣)، ابن الجوزي: مناقب عمر، ص٩٣، ابن عبد الهادي: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(٣٦٢/١-٣٦٣).

([6]) الطبري: المرجع السابق(٧٧/٥)، ابن كثير: المرجع السابق(٩٢/٧).

([7]) لسان العرب(رمد)، وقد ذكر المعاني السابقة لكنه رجح أنه من الهلاك، وانظر: ابن الأثير: النهاية(٢٦٢/٢).

([8]) انظر: الطبري : المرجع السابق (٧٥/٥)، خليفة بن خياط: المرجع السابق، ص١٣٨، ابن الأثير: المرجع السابق (٣٩٦/٢)، اليعقوبي: المرجع السابق(١٥٠/٢)، ابن كثير: المرجع السابق(٩٢/٧)، ابن خلدون: المرجع السابق(٥٣٠/٢).

([9])انظر: الطبري: المرجع السابق (٧٨/٥) من رواية سيف بن عمر، ابن كثير: المرجع السابق (٩٣/٧).

عشرة؛ أي أنها شملت معظم سنة تسع عشرة([1])، وهناك من يرى أنها كانت في سنة سبع عشرة([2]).

وأما مدة بقاء الأزمة فيقول ابن عبد البر–عن أزمة الرمادة –أنها(كانت شدة شديدة، ومسغبة عامة، وكان ذلك عامين أو ثلاثة، منع أهل الحجاز فيها غيث السماء، فساءت بهم الحال، وقيل: لها: أعوام الرمادة؛ لأن الأرض كانت قد اغبرت من شدة الجدب، وكان الغبار يرتفع بين السماء والأرض كالرماد، ومن قال: عام الرمادة، أشار إلى أشدها)([3])، ويذكر القرطبي أنها(كانت خمسة أعوام أو ستة، وقد قيل: عامين، وقيل: عام فيه اشتد الطاعون مع الجوع)([4])، وذكرت بعض الروايات أن مدة أزمة الرمادة كانت تسعة أشهر([5]).

ويمكن الجمع بين الأقوال السابقة بأن طبيعة أزمة الرمادة تقتضي أن تكون لها مقدمات امتدت فترة زمنية، كما أن آثارها امتدت فترة زمنية كذلك؛ فلم تكن بدايتها توقف لحركة الحياة الاقتصادية دفعة واحدة؛ فانقطاع المطر وما يترتب عليه من الجفاف، ثم انقطاع الكلأ والمرعى والزرع، وما يترتب عليه من آثار في الناس وفي الثروة الحيوانية والزراعية يظهر تدريجياً، وبالمثل فإنه بعد نزول المطر، لا تعود الحياة الاقتصادية لطبيعتها دفعة واحدة، فحتى ينبت الكلأ ويعود بالنفع على الماشية ثم على الناس فإن ذلك يستغرق فترة زمنية، كما أن شدتها ستختلف من وقت إلى آخر، ولعل ذروتها تلك الفترة التي حصل فيها النزوح إلى المدينة، وتحدثت عنها المصادر بالتفصيل، وذكرت أن مدتها تسعة أشهر، كما أشار إلى ذلك ابن عبد البر في كلامه السابق.

إن فهم ما سبق يساعد على حل كثير من الإشكالات والخلافات الواردة حول بداية ونهاية تلك الأزمة وبعض الأحداث المتعلقة بها([6]).

([1]) ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٥)، البلاذري: أنساب الأشراف (الشيخان)، ص٢٩١.

([2]) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٢٣.

([3]) الاستذكار(٢٦/٣٢٩).

([4]) الجامع لأحكام القرآن(١٨/١٦)، وقال ابن منظور: (وقيل:هي–يعني الرمادة – أعوام جدب تتابعت على الناس في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه)، انظر:لسان العرب(٣/١٨٦).

([5]) انظر: ابن سعد: المرجع السابق (٣/٢٣٥)، البلاذري : المرجع السابق،ص ١٩٤، ابن كثير: المرجع السابق (٧/٩٢)، ابن الجوزي: المرجع السابق، ص٩٣، ابن عبد الهادي: المرجع السابق(٣٦٣).

([6])من ذلك طاعون عمواس، وهل كان قبل الرمادة أو بعدها، وخروج عمر–رضي الله عنه– إلى الشام، وفتح مصر، وموت أبي عبيدة–رضي الله عنه–، ونحو ذلك.

٢-الحدود المكانية:

اختلفت الروايات حول تحديد المساحة الجغرافية لأزمة الرمادة، ومعظم الروايات على أنها عمت أرض الحجاز([1])، وتشير روايات أخرى إلى أنها شملت مناطق أخرى في الجزيرة العربية في نجد، وفي تهامة، وفي اليمن حيث أرسل إليها عمر-رضي الله عنه-رجلين من الأنصار معهما إبل كثيرة تحمل الميرة والتمر لتوزيعها على الجائعين هناك([2]).

ويبدو أن الأزمة قد تركزت في الحجاز وما حولها؛ إما لشدة الجدب والقحط فيها، وإما لنزوح المتضررين من تلك الأزمة إلى المدينة عاصمة الخلافة، ولا يمنع ذلك وجودها في مناطق أخرى من الجزيرة.

([1])انظر: الطبري: المرجع السابق (٥/٧٧)، ابن عبد البر: المرجع السابق(٢٦/٣٢٩)، ابن كثير: المرجع السابق(٧/ ٩٢)، ابن خلدون: المرجع السابق(٢/٥٣٠)، المقريزي: الخطط المقريزية(٣/٢٥٣)، السيوطي: المرجع السابق، ص١٢٣.

([2]) انظر: ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٦، ٢٤٦)، ابن شبه: أخبار المدينة(٢/٣١٢)، ابن الجوزي: المرجع السابق، ص٩٧، البيهقي: السنن الكبرى (٦/٥٧٧)، د. عبد الله بن محمد السيف: عام الرمادة، بحث منشور في مجلة العصور، المجلد الخامس، الجزء الأول ،١٤١٠هـ ،ص١١٦، والميرة: الطعام يجمع للسفر ونحوه، المعجم الوسيط(مير).

المطلب الثاني: أسباب أزمة الرمادة

أولاً: الأسباب المادية:

إن النشاطات الاقتصادية الرئيسة التي يزاولها العرب في الجزيرة العربية، هي النشاط التجاري، والنشاط الزراعي بشقيه: النباتي والحيواني(١).

ولقد تمثلت الأسباب المادية لتلك الأزمة في عوامل وظروف أضرت بتلك النشاطات الاقتصادية، وبخاصة النشاط الزراعي، وأهم تلك الظروف ما يلي:

١- السبب الرئيس للأزمة-كما تذكر معظم الروايات-هو الشح الشديد في الموارد المائية بسبب توقف نزول الأمطار، ولقد أثر هذا في النشاط الزراعي تأثيراً بالغاً، وسيأتي بيانه.

٢- وأما العامل الثاني فقد كان تأثيره في النشاط التجاري للعرب، وهذا العامل هو ظهور طاعون عمواس في بلاد الشام، حيث مات في ذلك الطاعون خلق كثير، فانشغل الناس بأنفسهم، كما أن التجار الذين كانوا يترددون على الشام توقفوا بعد سماعهم بانتشار مرض الطاعون في الشام(٢)، بل إن تعاليم الإسلام تقتضي عدم الدخول إلى أرض وقع الطاعون فيها أو الخروج منها(٣)، وهذا بلا شك سيؤثر سلباً في الحركة التجارية من الشام وإليها، كما كان له تأثير سلبي في النشاط التجاري في الحجاز، سيأتي بيانه بعد قليل.

٣- تلك هي أهم أسباب الأزمة، ويضيف بعض الباحثين أسبابا أخرى، تحتاج إلى مناقشة، وفيما يلي بيان أهم تلك الأسباب:

أ- الهجرة السكانية إلى المدينة النبوية، ولما كانت الموارد الاقتصادية للمدينة محدودة، ولم تكن المدينة مهيأة لاستقبال النازحين إليها، حدثت الضائقة الاقتصادية(٤).

---

(١) انظر: د.عبدالله محمد السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص٣٤١-٣٤٢، نورة بنت عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام، ص١١٨، د.محمد عبدالعزيز عجمية وآخرين: الموارد الاقتصادية، ص ٣٣-٣٤. وانظر ما سبق، ص٢٨-٣١.

(٢) انظر: الطبري: المرجع السابق(٣٢/٥)، ابن كثير: المرجع السابق(٨٠/٧-٨١)، ابن خلدون: المرجع السابق(٥٣٠/٢)، د.عبدالله بن محمد السيف: عام الرمادة، ص١١٥-١١٦، وتذكر تلك المصادر أن الطاعون قد عم العراق ومصر أيضاً، ولكنه ارتفع عنها ماخلا الشام، ولكن ابن حجر نقل ما يفيد أن طاعون عمواس لم يدم كثيراً، وهذا يعني أن أثره في تجارة العرب سيكون ضئيلاً.والله أعلم. انظر: فتح الباري(١٩٨/١٠).

(٣)قال النبي-صلى الله عليه وسلم -:[إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها] أخرجه البخاري في صحيحه، حديث رقم (٥٧٢٨)، ولذلك رجع عمر-رضي الله عنه-من الطريق لما سمع بالطاعون في بلاد الشام، انظر: البخاري: المرجع نفسه، حديث رقم (٥٧٢٩).

(٤)يرى ذلك د.عبدالله بن محمد السيف، انظر له: المرجع السابق، ص١١٤-١١٥.

ب-انشغال المسلمين بحركة الجهاد والفتوحات الإسلامية في العراق والشام ومصر، الأمر الذي تسبب في قلة الاهتمام بالزراعة ومصادر الماء والرعي.

ج- أبقى الرسول-صلى الله عليه وسلم-سكان خيبر من اليهود فيها؛ ليقوموا بزراعة الأرض مقابل أن يحصلوا على نصف المحصول، ويحصل المسلمون على النصف الآخر، وكان السبب الذي دفع الرسول-صلى الله عليه وسلم-إلى هذا الإجراء هو أن المسلمين كانوا مشغولين بالجهاد ونشر الدعوة، ولم يكن لديهم الوقت أو العدد الكافي من العمال الذين يقومون بزراعة الأرض، كما أنهم كانوا في حاجة إلى هذه الإمدادات الغذائية، وبخاصة أن خيبر منطقة زراعية واسعة خصبة، تنتج الكثير من المحاصيل الزراعية التي تعتمد عليها أجزاء كثيرة من بلاد الحجاز، ومن هنا فلا يستبعد أن يكون إخراج عمر-رضي الله عنه-اليهود من خيبر قد تسبب في نقص شديد في الإنتاج الزراعي لخيبر وما جاورها من مناطق زراعية، ولاسيما إذا تذكرنا أن المسلمين كانوا خلال تلك الفترة أكثر انشغالاً بالجهاد وحركة الفتح الإسلامي من ذي قبل([1]).

وفي مناقشة الأسباب المذكورة يمكن القول:

*بالنسبة للهجرة إلى المدينة النبوية ينبغي التفريق بين نوعين من الهجرة([2]): الهجرة التي سبقت الأزمة، والهجرة التي بعد الأزمة، فالأولى قد تكون سبباً في الأزمة، وبخاصة إذا ترتب عليها-فضلاً عن المشكلة السكانية-هجر النشاطات الاقتصادية التي كان يزاولها هؤلاء المهاجرون في مناطقهم الأصلية.

وأما الهجرة إلى المدينة بعد الأزمة فهي أثر من آثار تلك الأزمة، كما سيتضح عند الحديث عن آثار الأزمة.

*وأما القول بانشغال المسلمين بالجهاد وما نتج عنه من قلة الاهتمام بالرعي والزراعة.. فلم يكن ذلك سبباً للأزمة؛ لأن الأزمة عرضية، فلابد أن تكون أسبابها عرضية أيضاً، وجهاد المسلمين أمر مستمر قبل الأزمة وبعدها، ومن جهة ثانية فإن المسلمين لما انشغلوا بالجهاد عوضهم الله تعالى بالبلاد المفتوحة، وهي أراض خصبة، أبقى المسلمون أهلها فيها ليزرعوها، مقابل خراج يدفعونه للمسلمين، مما كان سبباً في تدفق الأموال على المسلمين، وتحسن أوضاعهم الاقتصادية([3]).

([1]) ذكر السببين(ب ، ج) صلاح التيجاني حمودي في بحث بعنوان: معالجة الخليفة عمر بن الخطاب لمشكلة المجاعة في عام الرمادة، نشر في المجلد(١)من مجلة جامعة الملك عبد العزيز (الاقتصاد الإسلامي)، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م، ص٨١-٨٢.

([2]) غير خاف الفرق بين الهجرة قبل فتح مكة، والتي كانت مطلوبة من المسلمين لأسباب شرعية، وبين الهجرة بعد فتح مكة، والتي كانت تتم باختيار الأفراد لأسباب مختلفة، والحديث هنا عن هجرة من النوع الأخير.

([3]) سيأتي مزيد تفصيل لذلك عند الحديث عن نهي عمر-رضي الله عنه- المجاهدين عن الاشتغال بالزراعة في البلاد المفتوحة، وذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني، ص٤٨٤-٤٨٦.

*وأما يهود خيبر فقد طلبوا من النبي-صلى الله عليه وسلم-بعد فتح خيبر أن يبقيهم فيها، (وقالوا: دعنا يا محمد نكون في الأرض؛ نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله-صلى الله عليه وسلم-ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، ولا كانوا يفرغون أن يقوموا عليها، فعاملهم عليها على أن لهم النصف من كل زرع ونخل، وقال:"نقركم فيها على ذلك ما شئنا")(١).

فلما كانت خلافة عمر-رضي الله عنه-رأى إخراج يهود خيبر، ويذكر ابن حجر أنه فعل ذلك لثلاثة أسباب:

الأول: تنفيذاً للوصية النبوية[لا يجتمع بجزيرة العرب دينان].

الثاني: ما رواه ابن شبه من طريق عثمان بن محمد الأخنسي أنه قال:[لما كثر العيال-أي الخدم-في أيدي المسلمين، وقووا على العمل في الأرض أجلاهم عمر](٢).

الثالث: غدرهم وعدوانهم؛ حيث خرج عبدالله بن عمر إلى ماله في خيبر، فاعتدى عليه يهود.

ويتضح مما سبق أن الرسول-صلى الله عليه وسلم-أبقى اليهود في خيبر لما طلبوا ذلك؛ وأن المسلمين كانوا في حاجة إلى عملهم في الأرض، على أن يكون للمسلمين حق إخراجهم متى شاؤوا.

ولما رأى عمر-رضي الله عنه-أن المسلمين قد استغنوا عن عمل هؤلاء اليهود، قرر-رضي الله عنه-إخراجهم، وهذا إجراء سليم، بل ومطلوب من الناحية الاقتصادية لما يترتب عليه من تشغيل قوة العمل الجديدة في المجتمع المسلم، والتي تتمثل في السبي الذي ملكه المسلمون إثر الفتوحات الإسلامية، وإحلال تلك القوة محل هؤلاء اليهود الذين يقتطعون نصف ناتج خيبر، وفي الوقت نفسه يشكلون خطراً على أمن واستقرار المجتمع المسلم.

وعليه فإن إخراج هؤلاء اليهود-لتلك الأسباب-لن يترتب عليه الإضرار بالزراعة في خيبر، وبالتالي فإنه ليس من أسباب أزمة الرمادة.

ومما يؤكد بطلان القول بأن إجلاء يهود خيبر كان من أسباب أزمة عام الرمادة، ويأتي على بنيانه من القواعد، أن إجلاء عمر-رضي الله عنه-ليهود خيبر كان بعد عام الرمادة، حيث تذكره المصادر ضمن أحداث سنة عشرين للهجرة(٣).

---

(١)البيهقي: المرجع السابق(١٨٩/٦)، معرفة السنن والآثار(٥٠٣/٤)، الصالحي:سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١٣٢/٥-١٣٣)، بتصرف، وبعضه في صحيح البخاري، انظر :حديث رقم (٢٣٣٨).

(٢)انظر: فتح الباري (٣٨٦/٥-٣٨٧)، صحيح البخاري ، حديث رقم (٢٧٣٠)، أبا عبيد: كتاب الأموال،ص٦١-٦٢، ابن زنجويه: كتاب الأموال(١٨٩/١)، ابن رجب: الاستخراج لأحكام الخراج،ص٢٥، د. يحي بن إبراهيم اليحيي: الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، ص٢٧٦-٢٧٧، وقد ذكر البلاذري أن سبي قيسارية-فقط-بلغوا أربعة آلاف رأس، فبعث بهم معاوية إلى عمر، فجعلهم في خدمات المسلمين. انظر له: فتوح البلدان، ص١٩٣.

(٣)انظر: الطبري: المرجع السابق(٩٤/٥)، ابن كثير: المرجع السابق(١٠٣/٧)، ابن الأثير: المرجع السابق(٤٠٩/٢)

ومما سبق يمكن القول بأن أزمة الرمادة أزمة عرضية تعود-في أسبابها المادية-لأسباب عرضية، وهي توقف الأمطار وما ترتب عليه من الجفاف، وظهور الطاعون وما أدى إليه من انقطاع التجارة بين الجزيرة وبلاد الشام؛ وبعبارة أخرى فإن تلك الأزمة ترجع إلى أسباب كونية، يمكن أن يتعرض لها أي نظام في أي عصر، ولم تكن عن خلل أو عيب في النظام الاقتصادي السائد، كما هو الحال في الأزمات الاقتصادية المعاصرة(١).

ثانياً: الأسباب المعنوية:

إن الأسباب المشار إليها سابقاً هي الأسباب المادية الظاهرة للأزمة، ولكن المنهج الإسلامي لا يقف في بحثه عن أسباب الأزمات ومعالجتها عند هذا الحد، بل يهتم بالبحث عن الأسباب المعنوية المترتبة على سلوكيات أفراد المجتمع وفئاته، ومدى الالتزام بالتعاليم الإسلامية.

إن المسلم يؤمن بأن للطاعات وللمعاصي-أيضاً-آثاراً مادية محسوسة في الدنيا والآخرة، لذلك فإن المسلم عندما تتوقف الأمطار-مثلاً-يتهم نفسه، ويبحث عن سبب ذلك في سلوكه وأعماله، يقول عمر-رضي الله عنه-:[إن الرجف من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء، وأئمة الجور](٢)، ولما زلزلت الأرض في عهد عمر-رضي الله عنه- خطب الناس فقال:[أيها الناس! ما كانت هذه الزلزلة إلا عن شيء أحدثتموه، والذي نفسي بيده! إن عادت لا أساكنكم فيها أبداً](٣)، وكان يقول عن أزمة الرمادة[أيها الناس! إني أخشى أن تكون سخطة عمتنا جميعاً](٤).

(قد يُقال إن هذه غيبيات لا ترى بالعين المجردة، ومن ثم فإنها لا تشكل أساساً للعلم، وهذا الاعتراض غير مستقيم؛ لأن تلك المفاهيم وإن كانت غير قابلة للمشاهدة في حد ذاتها، إلا أن أثرها

---

(١) انظر:د.شوقي دنيا: الإسلام والتنمية الاقتصادية، ص٣٩٤

(٢) ابن الجوزي : المرجع السابق، ص٢٣٥، ابن كثير: مسند الفاروق(٢٢٤/١)، ابن عبد الهادي: المرجع السابق(٧١٩/٢)، وفي الحديث:[يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم] أخرجه ابن ماجة: السنن، حديث رقم (٤٠١٩)، وسنده صحيح، انظر: الألباني: السلسلة الصحيحة، حديث رقم(١٠٦).

(٣)ابن أبي شيبة: المصنف (٢٢١/٢)، البيهقي: المرجع السابق(٤٧٦/٣)، ابن عبد الهادي: المرجع السابق(٩٦٧/٣)، السيوطي:كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، ص٤٤، المتقي الهندي:كنز العمال(٢٦٨/١١)، وإسناده صحيح كما يقول محقق كتاب: كشف الصلصلة، وقوله: أحدثتموه: من الحدث؛ وهو الأمر الحادث المنكر، الذي ليس بمعتاد، ولا معروف في السنة، انظر:لسان العرب(حدث).

(٤) ابن سعد: المرجع السابق(٢٤٥/٣)، البلاذري: أنساب الأشراف، ص٣٢٣.

في السلوك الإنساني والمتغيرات الاقتصادية يمكن مشاهدته بالقدر نفسه الذي تُشاهَد فيه "اليد الخفية " لقوى السوق، أو "التفضيلات " و"المنافع "، التي هي بدورها مفاهيم غير قابلة للمشاهدة.

إن الأهمية لا تكمن في كون تلك المفاهيم الغيبية قابلة للمشاهدة أم لا، وإنما تكمن فيما إذا كان أثر المفهوم في السلوك البشري والمتغيرات الاقتصادية واضحاً أم لا)([1]).

([1]) د. محمد عمر شابرا: ما هو الاقتصاد الإسلامي؟، ص٥٤-٥٥ بتصرف .

إن هذه ميزة للاقتصاد الإسلامي، بينما لا يؤمن الاقتصاد الوضعي بالغيب؛ لذلك يضع نظرياته ويدرس أزماته ويعالجها على أساس مادي، وللأسف قد تجد من كتاب الاقتصاد المسلمين-تحت دعوى التجريد والموضوعية، والتقليد لمناهج البحث الوضعية- من ينكر الحديث عن مثل هذه المسائل، ويعارض إدخالها في الدراسات الاقتصادية!.

المطلب الثالث: آثار أزمة الرمادة

لم تقتصر آثار أزمة الرمادة على ما حدث من مجاعة عامة، وإنما كان لها آثار أخرى، يمكن بيان أهمها فيما يلي:

أولاً: أثر الأزمة في النشاط الزراعي:

كانت مياه الأمطار والآبار هي المصادر الأساسية لسقي الزراعة في الجزيرة العربية(١)، ومن المعلوم أن انقطاع الأمطار يترتب عليه قلة المياه الجوفية(العيون والآبار).

إن المصادر لم تفصل أثر الجفاف في النبات والكلأ، ويكفي أنها قد أفادت أن الأرض-في تلك الأزمة-قد اسودت من قلة المطر، وصارت تسفي تراباً كالرماد، وأرض هذا وصفها لا يتوقع أن يكون فيها زرع ولا كلأ.

ومما يوضح هذا أن الثروة الحيوانية قد تأثرت تأثراً بالغاً بتلك الأزمة، يدل على ذلك ما روي عن عاصم بن عمر بن الخطاب أنه قال: (قحط الناس زمان عمر عاماً؛ فهزل المال، فقال أهل بيت من مزينة من أهل البادية لصاحبهم: قد بلغنا، اذبح لنا شاة، قال: ليس فيهن شيء، فلم يزالوا به حتى ذبح لهم شاة فسلخ عن عظم أحمر...)(٢)، ويروي ابن سعد عن حوشب بن بشر الفزاري عن أبيه قال: (رأيتنا عام الرمادة، وحصَّت السنة أموالنا؛ فيبقى عند العدد الكثير الشيء الذي لا ذكر له)(٣).

ويبدو-مما سبق-أن الأزمة قد أضرت بأهل البادية أكثر من غيرهم؛ لأن جل اعتماد أهل البادية على المطر، وقد أثَّر انقطاعه في نشاطهم الأساسي، وهو الرعي وتربية الماشية، وكانت هذه الثروة الحيوانية هي مقياس الغنى والفقر لدى أهل البادية، لاعتماد حياتهم عليها؛ فهم يشربون ألبانها، ويأكلون لحمها، ويكتسون من أوبارها وجلودها(٤).

(وأما أهل الريف-ومنهم أهل المدينة-فإنهم يسقون زرعهم من ماء العيون والآبار، وربما لا تتأثر بجفاف سنة واحدة، ثم إن أهل المدينة يجمعون بين الزراعة والتجارة، وقد يدخرون في بيوتهم قوت عام

---

(١) انظر: د.عبد الله محمد السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ص٥٥، نورة بنت عبد الملك آل الشيخ: المرجع السابق، ص١١٩-١٢١.

(٢) الطبري: المرجع السابق(٧٩/٥)، وفي رواية(وحتى جعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها، وإنه لمقفر)، انظر: المرجع نفسه(٧٨/٥).

(٣)المرجع السابق(٢٤٦/٣)، وانظر: أبا عبيد: المرجع السابق، ص٥٥٥، ويطلق المال عند أهل البادية على النعم. انظر: لسان العرب(مول)، د.نزيه حماد:معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، ص٢٩٣، وقوله:حصت السنة أموالنا؛ أي أذهبتها، انظر:لسان العرب(حص).

(٤) انظر: د.عبدالله محمد السيف: المرجع السابق، ص٧٥-٧٦.

أو عامين، ومما يدل على ذلك ما رواه ابن سعد أن عمر–رضي الله عنه–نظر عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين؛ تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هارباً وبكى، فسكت عنه عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا: اشتراها بكف من نوى، والبطيخ إنما جاء إلى سوق المدينة من مزارعها التي تسقى بمياه الآبار، وأيضاً يدل على ذلك أن عمر–رضي الله عنه–أراد أن يدخل على أهل كل بيت من الموسرين عددهم من المحتاجين، حتى يأتي الله بالمطر)([1]).

ثانياً: أثر الأزمة في النشاط التجاري:

ارتبطت الحجاز ببلاد الشام بروابط تجارية قوية؛ حيث كانت بلاد الحجاز تستورد كثيراً من احتياجاتها من بلاد الشام، وكان أهم ما تستورده الحجاز من الشام المواد الغذائية والمنسوجات([2]).

وكما سبق، فقد أدى ظهور الطاعون في بلاد الشام إلى ضعف الحركة التجارية بين الحجاز وبين بلاد الشام، وبالتالي قلت الإمدادات الغذائية من بلاد الشام إلى الحجاز، فارتفعت الأسعار، واحتكر الناس([3])، ومما يدل على ارتفاع الأسعار في تلك الأزمة أن ثمن وطب من لبن، وعكة من سمن بلغ أربعين درهماً([4]).

ثالثا:الآثار الاجتماعية للأزمة:

من أهم الآثار الاجتماعية لتلك الأزمة ما يلي:

ا–كان النزوح الكبير(الهجرة)إلى المدينة من أبرز الآثار الاجتماعية لتلك الأزمة، حيث (تجلبت العرب من كل ناحية، فقدموا المدينة...وكان الأعراب حلولاً فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى بني عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة، هم محدقون بالمدينة...)([5])، ولما كانت المدينة محدودة الموارد، ولم تكن مهيأة لاستقبال هذه الأعداد الكبيرة من

([1])محمد محمد حسن شراب: المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي(٢/٢٩–٣٠) بتصرف، والأثر سبق تخريجه، ص١٤٤، والريف: ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها، وقيل: الريف:حيث يكون الخَضَر والمياه، ومنه حديث العرنيين: إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف؛ أي إنا من أهل البادية لا من أهل المدن. انظر:لسان العرب(ريف).

([2]) انظر: د.عبدالله محمد السيف: المرجع السابق، ص١٢٣–١٢٤، أبا عبيد: المرجع السابق،ص٥٣١.

([3]) انظر: ابن شبه: المرجع السابق(٢/٣٠٩)، ويذكر اليعقوبي بعض آثار الطاعون في تاريخه(٢/١٥١) ويقول: (وغلا السعر، واحتكر الناس، فنهى عمر عن الاحتكار).

([4]) انظر: ابن شبه: المرجع السابق(٢/٣٠٧)، الطبري: المرجع السابق(٥/٧٧–٧٨)، والوطب:سقاء اللبن، والعكة: آنية السمن، انظر: القاموس المحيط(وطب، عك)، وانظر آثارا أخرى لدى : ابن الجوزي : المرجع السابق، ص٩٤،٩٨، ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٨)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣٠٧.

([5])ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٤٠–٢٤١)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣١٣–٣١٤، وتجلبت: تجمعت، مختار الصحاح(جلب)، والأسماء المذكورة هي لنواحي في المدينة، وفي الموضع نفسه يذكر ابن سعد أنه تم إحصاء هؤلاء النازحين، فوجد أن عددهم ستون ألفاً، وهو عدد كبير بمقاييس ذلك الزمان.

النازحين إليها، فقد شكل ذلك عبئاً على المدينة يصفه عمر-رضي الله عنه-في رسائله إلى ولاته، فيقول:[..فإن العرب قد دفت إلينا، ولم تحتملهم بلادهم، ولا بد لهم من الغوث...](١)، وقد بقي في البادية أضعاف من نزحوا إلى المدينة، وكان عمر-رضي الله عنه-مهتماً لأمرهم(٢)، وسيأتي بيانه.

٢-روى حبيب بن أبي ثابت أن عمر-رضي الله عنه-قال:[إذا كانت السَنة، فليس لأهل البادية نكاح](٣)، وفي رواية الزهري أن عمر-رضي الله عنه-قال:[والذي نفسي بيده لأمنعن فروج ذوات الأحساب إلا من ذوي الأحساب، فإن الأعراب إذا كان الجدب فلا نكاح لهم](٤).

وعلى فرض صحة المنع من نكاح أهل البادية في وقت المجاعة، فما وجه المنع منه؟.

يظهر وجه المنع من قول عمر-رضي الله عنه-في رواية رواها ابن قتيبة-وغيره-وفيها[وكان عمر لا يجيز نكاحاً في عام سنة، يقول:لعل الضِّيقة تحملهم على أن ينكحوا غير الأكفاء](٥)، وكان عمر-رضي الله عنه-[يشدد في الأكفاء](٦)، ويقول:[لأمنعن فروج ذوات الأحساب إلا من الأكفاء](٧).

ولعل عمر-رضي الله عنه-قد خص نكاح أهل البادية لسببين:

---

(١) ابن شبه: المرجع السابق(٣١١/٢)، وانظر:د. عبدالله بن محمد السيف: عام الرمادة، ص١١٥، وقوله:دفت؛ أي تتابعت في النزوح إلى المدينة، انظر: القاموس المحيط(دف).

(٢) انظر: محمد محمد حسن شراب: المرجع السابق، ص٣١.

(٣) عبد الرزاق: المصنف(١٥٢/٦)، وفي سنده انقطاع؛ لأن حبيب بن أبي ثابت لم يدرك عمر، وهو-أيضاً-مدلس، وفي السند عنعنة ابن جريج، وهو مدلس، فالسند ضعيف، انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب(١٦٤-١٦٥)، طبقات المدلسين،ص٣٧، ٤١، وقد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف-من رواية حبيب بن أبي ثابت-بلفظ[كان عمر لا يجيز النكاح في عام سنة، يعني المجاعة]، وفي سنده انقطاع كذلك.

(٤)عبد الرزاق: المرجع السابق(١٥٤/٦)، وفي سنده انقطاع؛ الزهري لم يدرك عمر ، انظر: ابن حجر: تهذيب التهذيب(٣٨٥/٩-٣٨٨).

(٥)غريب الحديث(٢٧٢/١)، وانظر له: عيون الأخبار(١٣/٤)، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة(١٥٦/١٢)، وذكرها ابن الأثير بلفظ[لعل الضيق أن يحملهم على أن ينكحوا غير الأكفاء]، انظر له: النهاية(٤١٤/٢)، والضيقة؛ بالكسر وتفتح: الفقر وسوء الحال، انظر: القاموس المحيط(ضيق)، وما كان عمر-رضي الله عنه- يخشاه غير مستبعد؛ حيث نسمع أنه يحدث في بعض الأزمات ما هو أشد من ذلك، وهو إقدام بعض الأسر على بيع بعض أطفالها مقابل الحصول على مبالغ زهيدة تسد بها حاجتها.

(٦) عبد الرزاق: المرجع السابق(١٥٢/٦).

(٧) عبد الرزاق: المرجع نفسه، الموضع نفسه، الدارقطني:سنن الدارقطني (٢٠٦/٣)، البيهقي: السنن الكبرى(٢١٥/٧)، وانظر: ابن قدامة: المغني(٤٨٠/٦، ٤٨٣)، وهذا الأثر من رواية إبراهيم بن محمد بن طلحة عن عمر، وسنده صحيح إن كان إبراهيم قد أدرك عمر، انظر: المزي : تهذيب الكمال (١٣٠/١)، والألباني: إرواء الغليل، حديث رقم (١٨٦٧)، وقد جاء في الحديث:[تخيروا لنطفكم؛ فانكحوا الأكفاء، وأنكحوا إليهم]، أخرجه ابن ماجة: السنن، حديث رقم (١٩٦٨)، الحاكم: المستدرك(١٧٦/٢-١٧٧)، الدارقطني: المرجع السابق(٢٠٧/٣)، البيهقي: المرجع السابق(٢١٤/٧-٢١٥)، وسند صحيح، انظر: الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم (١٠٦٧)، ويبدو أن أساس الكفاءة لدى عمر-رضي الله عنه-هو= =الدين والفعال الحسنة، يؤيد ذلك قوله-رضي الله عنه-:[حسب المرء دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله]. الدارقطني: المرجع السابق(٢١٠/٣)، وقال محققه: إسناده حسن، وانظر: ابن حجر: فتح الباري (٣٨/٩).

الأول: أن أهل البادية تضرروا من الأزمة أكثر من غيرهم.

الثاني: أن أهل البادية يتشددون في اشتراط الكفاءة أكثر من غيرهم.

لذلك كان عمر-رضي الله عنه -يخشى أن تحمل الحاجة أهل البادية على تزويج غير الأكفاء، فتكون لذلك آثار سيئة منها:

*ظلم المرأة بتزويجها من ليس بكفء لها.

*حدوث الندم عندما تزول الأسباب التي دعت إلى ذلك التزويج، وبخاصة أن العرب كانوا يُعيِّرون من زَوَّج غير الأكفاء .

*قد يتعرض الأطفال لضغوط نفسية، لعدم الانسجام بين الأبوين في حال عدم كفاءتهما لبعضهما البعض(١).

*توفر شرط الكفاءة من عوامل استقرار العلاقة الزوجية واستمرارها(٢).

وما سبق يبين جانباً من أثر الأزمة في العلاقات الاجتماعية، وما قد يحدث من ظلم وإساءة للمرأة؛ وذلك بتزويجها ممن ليس لها بكفء، فتكون لذلك آثار سيئة.

٣-درأ عمر-رضي الله عنه-حد السرقة عن السارق في المجاعة، وفق ضوابط معينة، سيأتي توضيحها في المبحث الثاني.

إن درء عمر-رضي الله عنه-الحد عن السارق الذي تلجئه الضرورة للسرقة في وقت المجاعة يوحي بإدراكه-رضي الله عنه-(بأثر الأوضاع الاقتصادية في الأخلاق، وضغطها المباشر وغير المباشر على سلوك الأفراد والجماعات، ولذلك كان يوصي ولاته[لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تحرموهم

(١)حدثني رجل من أهل المدينة كبير في السن، وذو معرفة واطلاع، أنه في أثناء الحرب العالمية الثانية اضطر بعض القبائل أن يزوجوا غير الأكفاء، فلما انقضت ظروف الحرب، كان التعامل مع الأصهار وأولادهم مختلفاً بحسب الأصهار؛ حيث كان تعامل الرجل مع أصهاره وأولادهم ممن يشعر بأنهم أكفاء لابنته غير تعامله مع أصهاره الذين يشعر بأنه إنما زوجهم تحت ضغط الحاجة، وغير خاف الآثار النفسية وغيرها لذلك في الزوج والزوجة وأولادهما.

(٢)ولقد ذكر ابن قتيبة في غريب الحديث(٢٦٦/١) وابن شبه في أخبار المدينة(٣٣٨/٢) أن شابة زُوِّجت شيخاً فقتلته، وكان ذلك في عهد عمر-رضي الله عنه-فخطب الناس قائلاً:[يا أيها الناس، لينكح الرجل لُمَته من النساء، ولتنكح المرأة لُمَتها من الرجال]، ولُمَة الرجل شكله ومثله في السن، انظر: ابن قتيبة: المرجع نفسه(٢٦٦/١)، وترتيب مختار الصحاح(لمي). وأثناء كتابة البحث عقد مجمع الفقه الإسلامي بالهند ندوته الفقهية الحادية عشر، وحضرها مائتان وخمسون من العلماء والفقهاء والمختصين، وكان من الموضوعات التي نوقشت موضوع الكفاءة في الزواج؛ حيث حذر المجمع (من عدم الكفاءة في الزواج، مؤكداً أن الزواج الذي يتم في غير كفاءة بين الرجل والمرأة لا يأتي بخير في غالب الأحوال، ولا تقتصر تأثيراته السيئة في الزوجين فقط، بل تتجاوزهما إلى بيتهما وأسرتيهما، لذلك اعتبر الإسلام الكفاءة من أحكام النكاح)، مجلة المجتمع، العدد (١٣٥٠)، في ٣صفر ١٤٢٠هـ، ص٥١، بتصرف، وانظر في أقوال الفقهاء حول الكفاءة في الزواج: ابن قدامة: المرجع السابق(٤٨٠/٦-٤٨٧)، السيد سابق: فقه السنة(٢٠٩/٢-٢١٦).

حقوقهم فتكفروهم، ولا تُجمّروهم فتفتنوهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم](١)، ومعنى التجمير: إطالة غربة الجيش بعيداً عن الزوجات والأولاد، فقد يؤدي ذلك إلى الانحراف الجنسي، واعتياد المعصية، وهذا إرشاد من خليفة يعرف الواقع وما ينشأ عنه)(٢)، وتشير دراسات في هذا الشأن إلى(ارتفاع نسبة بعض الجرائم في أوقات الأزمات الاقتصادية، وانخفاضها خلال فترات الرخاء الاقتصادي)(٣).

رابعاً:الآثار الصحية للأزمة:

أشارت المصادر إلى انتشار الأمراض والأوبئة في عام الرمادة، وقد أدى ذلك إلى حدوث وفيات كثيرة، وبخاصة في صفوف النازحين إلى المدينة عام الرمادة، قدَّرها أسلم بقوله-عن النازحين-: (وقد كان وقع فيهم الموت، فأراه مات ثلثاهم، وبقي ثلث)(٤)، ولعل هذا الوباء هو الذي قصده أبو الأسود الديلمي بقوله: (أتيت المدينة، فوافيتها وقد وقع فيها مرض؛ فهم يموتون موتاً ذريعاً...)(٥).

(١) ابن سعد: المرجع السابق(٢١٣/٣، ٢٢٣)، البيهقي: السنن الكبرى(٥٠/٩)، معرفة السنن والآثار(٥٠٦/٦)، الخطابي: معالم السنن(٣٦٤/٣)، وانظر: البلاذري: المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٢) محمد الغزالي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، ص٩٨ بتصرف.

(٣)د.سيد شوربجي عبد المولى: الفكر الاقتصادي الإسلامي ومكافحة جرائم النمو الاقتصادي، ص٤٤، وانظر:ص٤٢-٤٣، وانظر:د. التهامي نقرة: آفة الفقر ووسائل تلافيها، ص٥٩-٦١، د.محيي الدين المبروك:ما هي آثار الأوضاع الاقتصادية على معدلات الجريمة، ص٥٤، البحثان الأخيران ضمن مجموعة بحوث بعنوان: الفقر والجريمة، نشرها المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض، ١٤٠٦هـ.

ومن الجدير بالذكر أن الغِنَى-أيضاً-قد تكون له آثار سيئة، ومن ذلك البطر والطغيان، قال الله تعالى:{كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى}، سورة العلق، الآيتان(٦، ٧)، ولكن تختلف جرائم الفقراء عن جرائم الأغنياء، وكل ذلك يحدث-في المجتمع المسلم-عند ضعف الوازع الإيماني. انظر:د. عبد القادر الزغل:مشكلية العلاقة بين الفقر والجريمة، ص١١، د. منصف الحاجي: أهمية الجرائم المتصلة بالحاجات المالية، ص ٤١، ضمن أبحاث الفقر والجريمة.

(٤) ابن سعد: المرجع السابق(٢٤١/٣)، ولعل ذلك هو المقصود بذكر بعض المؤرخين للطاعون مع المجاعة، انظر: ابن خلدون: المرجع السابق(٥٣٠/٢).

(٥) أحمد: المسند، حديث رقم (١٤٠، ٢٠٤، ٣٢٠)، البخاري : الصحيح، حديث رقم (١٣٦٨، ٢٦٤٣)، ابن كثير: جامع المسانيد (٢٦٦/١٨-٢٦٧)، والموت الذريع : السريع، انظر: مختار الصحاح(ذرع)، وكان ذلك في خلافة عمر-رضي الله عنه- كما ذكرت تلك المصادر.

المبحث الثاني: معالجة التقلبات الاقتصادية

يهدف هذا المبحث إلى معرفة موقف عمر-رضي الله عنه-في أزمة عام الرمادة، والوسائل التي اتخذها لمعالجتها، وسيكون ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول: السلوك الذاتي لعمر-رضي الله عنه-في الأزمة

المطلب الثاني: إدارة الأزمة

المطلب الثالث: الوسائل المادية

المطلب الرابع: الوسائل المعنوية

المطلب الخامس: إجراءات استثنائية

المطلب الأول:السلوك الذاتي لعمر-رضي الله عنه-في الأزمة

لقد كان للسلوك الذاتي لعمر-رضي الله عنه-في تلك الأزمة آثار مهمة في معالجتها، والتخفيف من آثارها، وكان سلوكه مثالاً رائعاً لما ينبغي أن يكون عليه حال الحاكم المسلم في مثل تلك الحالات.

ولقد زخرت المصادر بالكثير من الروايات التي تبين جوانب متعددة من هذا السلوك، وسوف يقتصر البحث على نماذج من ذلك السلوك، وبإمكان القارئ الرجوع إلى مصادر البحث لمعرفة المزيد، وفيما يلي بعض تلك الجوانب:

أولاً:الشعور بالمسؤولية:

إذا كان عمر-رضي الله عنه-يخشى أن يسأله الله تعالى عن شاة ماتت ضائعة على شاطئ الفرات(١)، فإن شعوره بالمسؤولية عن هلاك وتضرر رعيته من بني الإنسان سيكون أشد من باب أولى، لذلك كان-رضي الله عنه-يدعو في عام الرمادة، ويقول:[اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يديّ وفي ولايتي](٢).

إن الشعور بالمسؤولية هو المحرك الأساسي نحو القيام بكل ما يمكن لإنهاء الأزمة، ومعالجة آثارها، وبدون ذلك يتبلد الإحساس، وتفتر الهمم.

---

(١) انظر: ص٢٦٠.

(٢) ابن سعد: المرجع السابق(٢٣٧/٣)، البلاذري: المرجع السابق، ص٢٩٥، ولقد وردت آثار كثيرة تبين تأثير الأزمة في عمر-رضي الله عنه-، وتغير لونه، انظر: ابن سعد: المرجع نفسه، ص٢٣٨-٢٤٢، البلاذري: المرجع نفسه، ص٣٠٧-٣١١.

لقد حمل عمر-رضي الله عنه-همَّ تلك الأزمة، شعوراً منه بمسؤوليته عن معالجة آثارها ومساعدة المتضررين منها، ويمكن تصور مبلغ ذلك الهمّ من رواية زيد بن أسلم عن أبيه عن جده قال:[كنا نقول: لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة، لظننا أن عمر يموت هماً بأمر المسلمين](١).

ثانياً:المشاركة في تحمل أضرار الأزمة، وسن القدوة الحسنة للأمة:

لقد كان عمر-رضي الله عنه-يرى أن مشاركة الأمة في معاناتها من واجبات أولياء الأمور، ولذلك كان[يكره أن يأكل شيئاً لا يدرك الناس مثله؛ لئلا يستأثر عن رعيته، ويؤثر نفسه عليهم](٢)، و[إذا بلغه عن ناحية من نواحي المسلمين غلاء حط نفسه على قدر ما يبلغه، ويقول: كيف يكونون مني على بال إذا لم يمسني ما مسهم، وإنه غلظ على نفسه وأقبل على خبز الشعير فقرقر في بطنه يوماً، فقال: هو ما ترى حتى يحيي أهل مدينة كذا](٣).

وفي تلك الأزمة[ما أكل عمر-رضي الله عنه-في بيت أحد من ولده، ولا بيت أحد من نسائه ذواقاً، إلا ما يتعشى مع الناس حتى أحيا الله الناس أول ما أحيوا](٤)، وحلف-رضي الله عنه-[لا يأكل سمناً ولا لحما حتى يحيا الناس من أول ما أحيوا](٥)، حتى وإن اشتراه غيره له، فإنه يمتنع عنه، يدل على ذلك أنه لما اشترت له امرأته سمناً-في عام الرمادة-قال لها: ما هذا؟ قالت: هو من مالي، ليس من نفقتك، فقال عمر-رضي الله عنه-:[ما أنا بذائقه حتى يحيي الناس](٦)، ويصف عياض بن خليفة حال عمر-رضي الله عنه-في عام الرمادة، فيقول:[رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون، ولقد كان أبيض، ولقد كان رجلاً عربياً؛ يأكل السمن واللبن، فلما أمحل الناس حرَّمهما حتى يحيوا، فأكل الزيت حتى غيَّر لونه، وجاع فأكثر](٧)، ويصف السائب بن يزيد ملبس عمر-رضي الله عنه-في عام الرمادة فيقول:[رأيت على عمر بن الخطاب إزاراً في زمن الرمادة، فيه ست عشرة رقعة..](٨).

---

(١) ابن سعد: المرجع السابق (٢٣٩/٣)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣١١، ابن عبد الهادي: المرجع السابق(٣٦٣/١)، والمحل: الجدب، مختار الصحاح(محل).

(٢)ابن عبد البر: الاستذكار(٣٣٠/٢٦).

(٣)سبق تخريجه، ص١٤٣.

(٤)ابن سعد: المرجع السابق، ص٢٤١، بتصرف، وفي ص٢٣٧[وكان عمر يأكل مع القوم كما يأكلون]، وانظر:عبد الرزاق: المرجع السابق(٢٢٣/١١)، البلاذري: المرجع السابق، ص٢٩٣.

(٥)سبق تخريجه، ص١٤٣، وانظر آثاراً أخرى بهذا المعنى لدى: ابن سعد: المرجع السابق(٢٣٨/٣-٢٤٠)، ابن شبه: المرجع السابق(٣٠٧/٢-٣٠٩)، البلاذري: المرجع السابق، ص٢٩٦، ابن عبد البر: المرجع السابق(٣٢٨/٢٦-٣٣٠)، ابن الجوزي: المرجع السابق، ص٩٥، ١٦٧.

(٦) ابن الجوزي : المرجع السابق، ص٩٤.

(٧) ابن سعد: المرجع السابق(٢٣٩/٣)، ابن الجوزي: المرجع السابق، ص٩٣، ابن عبد الهادي: المرجع السابق(٣٦٣/١).

(٨) ابن سعد: المرجع السابق (٢٤٣/٣)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣١٩.

إن تشديد عمر-رضي الله عنه-في تلك الأزمة يحقق أغرضاً جليلة، ومن أهم تلك الأغراض([1]):

*الشعور بآلام الرعية يدفع نحو مضاعفة الجهد في العناية بهم، والسعي لرفع الضر عنهم، وإلى ذلك يشير القول السابق لعمر-رضي الله عنه-:[كيف يكونون مني على بال، إذا لم يمسني ما مسهم].

*لقد كان عمر-رضي الله عنه-يرى أن على ولي الأمر أن يجعل حياته في مستوى حياة رعيته، فكان يأكل معهم، ولا يرضى أن يتناول في بيته، حتى لا يظن أحد أنه يؤثر نفسه بشيء لا يناله ذو الفاقة من رعيته.

*إن مشاركة الحاكم لرعيته في تحمل أعباء الأزمات، يخفف عنهم الشعور بالألم والحرمان، ويجعلهم أكثر تحملاً لآثارها المختلفة، ما داموا يرون أن أكبر رجل في الدولة يشاركهم البأساء والضراء؛ لأن الأمة-ولا سيما في وقت الأزمات-بحاجة إلى وجود قدوات في مجال التقشف، والصبر، وتحمل الأعباء، والإيثار، ومساعدة المحتاجين، ونحو ذلك، مما يكون له أثر في تحلي الأمة بتلك الصفات، التي تسهم بدرجة كبيرة في معالجة تلك الأزمات، والصبر على شدتها.

ولقد كان عمر-رضي الله عنه يدرك أهمية السلوك الذاتي لولي الأمر وأهله وعماله في مثل تلك الأزمة؛ فالناس ينظرون إليهم، ويتأثرون بأحوالهم، يقول-رضي الله عنه-:[إن الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم][2]، وفي رسالته لأبي موسى يقول:[إن الناس يؤدون إلى الإمام ما أدى إلى الله، وإن الإمام إذا رتع رتعت الرعية..][3].

ومن جهة ثانية فإن عمر-رضي الله عنه-كان [إذا نهى عن أمر دعا أهله، فقال: إني نهيت عن كذا وكذا، وإنما ينظر الناس إليكم نظر الطير إلى اللحم؛ فإن وقعتم وقع الناس، وإن هبتم هاب الناس، وإنه والله لا يقع أحد منكم في شيء مما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه مني][4]، ولذلك لما نظر عمر-رضي الله عنه-[عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين؛ تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هاربا وبكى، فسكت عنه عمر بعدما سأل عن ذلك، فقالوا : اشتراها بكف من نوى][5].

([1])انظر: محمد حسين هيكل: الفاروق(١/٢٧٠).

([2]) ابن سعد: المرجع السابق (٣/٢٢٢).

([3])سبق تخريجه، ص١٤٥.

([4]) سبق تخريجه، ص١٦٢.

([5])سبق تخريجه،ص١٤٤.

ولقد جعل عمر-رضي الله عنه-من نفسه ومن أهله وعماله قدوات لعموم الناس، فيما ينبغي أن يكون عليه الحال في مثل تلك الأزمات(١).

المطلب الثاني: إدارة الأزمة

لا يمكن نجاح أي عمل قائم على الفوضى أو الارتجالية، فالإدارة والتنظيم شرط لنجاح الأعمال، والإدارة (هي التخطيط ثم التنفيذ، لاستغلال الإمكانات الممكنة، والتنسيق بينها لتحقيق الأهداف المتوخاة في ظل التوجيه والرقابة)(٢).

والإدارة أنواع متعددة، ومن ذلك(إدارة الأزمات، وهي الإدارة المتخصصة في مواجهة الطوارئ والأزمات غير الدائمة)(٣).

ومعالجة أزمة بحجم أزمة الرمادة لابد لها من إدارة وتنظيم، وهو ما سار عليه عمر-رضي الله عنه-في معالجته لآثار تلك الأزمة.

لقد استهدف عمر-رضي الله عنه-معالجة أسباب الأزمة، وتلبية حاجات المتأثرين بها، والقضاء على الآثار المختلفة لتلك الأزمة، واتخذ-رضي الله عنه-وسائل متنوعة لتحقيق تلك الأهداف، وقام-رضي الله عنه-بتنظيم الجهود والتنسيق بينها لتحقيق الأهداف المبتغاة، في ظل التوجيه والمتابعة والتقويم، ويمكن الاطلاع على شيء من ذلك في الآثار التالية(٤):

١-روى ابن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه قال:[لما كان عام الرمادة، تجلبت العرب من كل ناحية، فقدموا المدينة، فكان عمر بن الخطاب قد أمر رجالاً يقومون عليهم، ويقسمون عليهم أطعمتهم وإدامهم؛ فكان يزيد ابن أخت النمر، وكان المسور بن مخرمة، وكان عبد الرحمن بن عبد القاريّ، وكان عبدالله بن عتبة بن مسعود، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر؛ فيخبرونه بكل ما كانوا فيه، وكان كل رجل منهم على ناحية من المدينة، وكان الأعراب حلولاً فيما بين رأس الثنية إلى راتج إلى بني حارثة إلى عبد الأشهل إلى البقيع إلى بني قريظة، ومنهم طائفة بناحية بني سلمة هم محدقون بالمدينة، فسمعت عمر يقول ليلة-وقد تعشّى الناس عنده-: أحصوا من تعشّى عندنا، فأحصوهم من القابلة فوجدوهم سبعة آلاف رجل، وقال: أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفاً، ثم مكثنا فزاد الناس، فأمر بهم فأحصوا، فوجدوا من تعشّى عنده عشرة آلاف، والآخرين خمسين ألفاً، فما برحوا حتى أرسل الله السماء، فلما مطرت رأيت عمر

---

(١) انظر: ص١٤٤-١٤٥.

(٢) د.عوض محمد القرني:حتى لا تكون كلاً، ص١٨٧، وانظر :د. محمود العساف: أصول الإدارة ، ص١١-١٣.

(٣)د. عوض محمد القرني: المرجع السابق، ص١٨٨ بتصرف.

(٤)سترد-هنا-بعض الأمثلة، وما سيأتي من تفاصيل-في بقية المطالب-عن الجهود التي بذلت لمعالجة الأزمة، كله-أيضاً-أمثلة لما اتخذه عمر-رضي الله عنه-من أساليب إدارية في معالجته للأزمة، وستتضح من خلال ذلك جوانب إدارية أخرى.

قد وكل كل قوم من هؤلاء النفر بناحيتهم، يخرجونهم إلى البادية، ويعطونهم قوتاً وحُمْلاناً إلى باديتهم، ولقد رأيت عمر يخرجهم هو بنفسه][1].

٢-ومن لم يتمكن من أهل البادية-المتضررين-من الانتقال إلى المدينة، فقد كان عمر-رضي الله عنه-يرسل إليهم احتياجاتهم إلى أماكنهم، ويوجه رسله بقوله:[أما ما لقيت من الطعام، فمِل به إلى أهل البادية؛ فأما الظروف فاجعلها لُحُفاً يلبسونها، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها، ويحملون من ودكها، ولا تنتظر بها أن يقولوا ننتظر بها الحيا، وأما الدقيق فيصطنعون ويحرزون حتى يأتي أمر الله لهم بالفرج][2].

٣-ومن متابعاته أنه كان يتعاهد من عنده بالغداة والعشي، وكان[يدور على القصاع، يقول: يا يرفأ! زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزاً، زد هؤلاء مرقة][3]، وقال-رضي الله عنه-ليرفأ[احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم][4].

٤-وكان يرسل إلى كل قوم ما يصلحهم بانتظام، يقول أحد بني نصر عن عمر-رضي الله عنه-[فكان يرسل إلى قومي بما يصلحهم شهراً بشهر][5].

إن الآثار السابقة تدل بوضوح على اتباع عمر-رضي الله عنه-أساليب إدارية ناجحة في معالجة آثار أزمة عام الرمادة، ومن الجوانب الإدارية التي أشارت إليها تلك الآثار ما يلي:

*التوزيع المكاني لهؤلاء المتضررين على أطراف المدينة بصورة متوازنة، حيث أخذت كل جهة من جهات المدينة نصيباً من هؤلاء النازحين؛ وبالتالي لا تحدث كثافة سكانية على بعض الجهات دون بعض.

ومن جهة ثانية، فإن توزيع هؤلاء النازحين-بتلك الصورة-من عوامل تسهيل إغاثتهم، فقد نظم عمر-رضي الله عنه-الجهود ونسق بينها، وجعل لكل ناحية مسؤولاً؛ يقوم على مَنْ فيها، ويقسم عليهم الطعام والإدام، ويتولى إعادتهم إلى باديتهم بعد زوال الأزمة، كما كان يرسل رجالاً بالإمدادات

---

(١)سبق تخريجه، ص٣٣٠، وكانت أعداد كثيرة تبقى في منازلهم حول المدينة؛ لا يحضرون موائد عمر-رضي الله عنه-، فكان يرسل إلى أولئك المتبقين ما يصلحهم، ومن جهة ثانية فقد كان الذين بقوا في ديارهم ولم ينزحوا إلى المدينة أضعاف من نزحوا إلى المدينة، انظر: ص٣٣١.

(٢) ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٦)، البلاذري: المرجع السابق، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٣)الطبري: المرجع السابق(٥/١٧٨)، وانظر: ابن شبه: المرجع السابق(٢/٣١٢)، القصاع:جمع قصعة، وهي الصحفة الضخمة، تشبع العشرة، انظر:لسان العرب، القاموس المحيط(قصع).

(٤) ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٧)، ابن الجوزي : المرجع السابق،ص٩٣، ابن عبد الهادي: المرجع السابق(١/٣٦٢)، وثمغ: اسم مال لعمر-رضي الله عنه-بالمدينة، وقفه، انظر: لسان العرب(ثمغ)، ويرفأ:مولى عمر رضي الله عنه.

(٥) ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٤١)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣١٥.

إلى الآخرين في باديتهم، وكان قد نظم أوقاتاً لتلك الإمدادات، فمنها الشهري ومنها اليومي، وغير ذلك، بحسب القرب والبعد من المدينة.

*وكان-رضي الله عنه-يزود عماله بالتوجيهات التفصيلية اللازمة لسير العمل وانتظامه.

*وكان-رضي الله عنه-يتابع العمل، ويعقد اجتماعاً مساء كل يوم مع مسؤولي النواحي؛ ليوافوه بتقارير مفصلة عن سير العمل.

*وكان يأمر بإحصاء المتضررين من الأزمة، ويأمر بإعادة الإحصاء كلما زاد عدد هؤلاء المتضررين، لكي تبنى الخطط على معلومات دقيقة ومفصلة.

*وكان-رضي الله عنه-يقوم بالإشراف الميداني المباشر على بعض الأعمال، ويقوم بزيارات منتظمة للمتضررين من الأزمة للتعرف على أحوالهم.

*وإلى جانب ما سبق، فإن عمر-رضي الله عنه-قد وضع خططاً استراتيجية لمواجهة التقلبات المستقبلية، ومن ذلك حفر الخليج للربط بين مصر وبين الحجاز، لتسهيل جلب المواد الغذائية إلى منطقة الحجاز(١).

كما أنه-رضي الله عنه-قد وضع بعض الخطط الاحتياطية في حالة استمرار الأزمة، ومن ذلك قوله-رضي الله عنه-بعد نزول الغيث -:[الحمد لله، فوالله لو لم يفرجها الله ما تركتُ أهلَ بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان ليهلكا من الطعام على ما يقيم واحداً](٢).

ومما سبق يتضح أن معالجة عمر-رضي الله عنه-لتلك الأزمة لم تكن عشوائية، بل كانت وفق خطط مرسومة، وتنفيذ منظم، مع ما يتطلبه ذلك من التوجيه والمتابعة، وهذا يعني أنه ينبغي للمسلمين أن ينظموا حياتهم الاقتصادية-وغيرها-وفق أرقى ما يصل إليه الفكر الإنساني من الأساليب الإدارية(٣).

(١) سيأتي تفصيل في المطلب القادم، انظر: ص٣٤٣-٣٤٤.

(٢)سبق تخريجه، ص٢٨٧، وسيأتي تفصيل عن ذلك في المطلب الخامس، انظر: ص٣٥١-٣٥٢.

(٣) غير خاف أن العلوم الإدارية من العلوم الإنسانية التي يستفيدها الناس بعضهم من بعض، واستفادة المسلمين من غيرهم في هذا المجال مشروطة بما لا يعارض الأحكام الشرعية، وقد استفاد عمر-رضي الله عنه-نظام الدواوين من فارس، كما سيأتي بيانه في الفصل الثاني من الباب الثالث، انظر: ص٦٠٢.

المطلب الثالث: الوسائل المادية

حشد عمر-رضي الله عنه-كافة الإمكانات المادية المتاحة للدولة في وقته، لمعالجة أزمة الرمادة، والتخفيف من آثارها، ويمكن بيان ذلك في الفروع التالية:

الفرع الأول:توجيه الموارد نحو معالجة الأزمة:

ويتمثل هذا في ضبط الإنفاق، وترتيب أولوياته ليتناسب مع ظروف الأزمة، كما يتمثل ذلك في مد يد العون للمتضررين من الأزمة، وفيما يلي تفصيل موجز لذلك:

أولاً:سياسة التقشف:

تعتبر سياسة التقشف وضبط الإنفاق من أهم الوسائل المتبعة في أوقات الشدة والأزمات، حيث يترتب عليها توفير موارد مهمة، تسهم في التخفيف من وطأة الأزمات، كما أنها تعتبر نوعاً من التكافل في مثل تلك الحالات، حيث يشعر المتضررون من تلك الأزمة بأن إخوانهم يشاركونهم المعاناة، ويتخلون عن بعض احتياجاتهم لصالحهم.

لقد أدرك عمر-رضي الله عنه-أهمية اتباع تلك السياسة في عام الرمادة، فبدأ بنفسه وأهله، وقد سبقت الإشارة في المطلب الأول إلى جوانب من السلوك التقشفي الذي سلكه عمر-رضي الله عنه-وأهله؛ لإدراكه-رضي الله عنه-أن سياسة التقشف لن تنجح ما لم يجعل الحاكم من نفسه وأهله وعماله قدوة للآخرين(١).

ومن جهة ثانية فإن عمر-رضي الله عنه-كان يدعو المسلمين إلى الاقتصاد في الاستهلاك، وتوجيه ذلك إلى المحتاجين، ومن مواقفه في ذلك أنه في عام الرمادة نهى عن الجمع بين السمن واللحم على مائدة واحدة(٢)، ولما رأى عمر-رضي الله عنه-على الأحنف ثوباً اشتراه باثني عشر درهماً، قال له:[فهلا بدون هذا، ووضعت فضلته موضعا تغني به مسلماً...](٣).

ومن الخطوات العملية التي اتخذها عمر-رضي الله عنه-لتحقيق التقشف تحديد كمية ونوعية الاستهلاك، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وترجيح كونه في عام الرمادة(٤).

وفي عام الرمادة كان عمر-رضي الله عنه-يوجه النساء لكيفية إعداد الطعام بطريقة توفر الموارد، وتحسن استغلالها، روى حزام بن هشام عن أبيه أنه قال:[رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مر على

---

(١) انظر: ص٣٣٤-٣٣٦.

(٢) انظر: ابن شبه: المرجع السابق(٢/٣٠٨-٣٠٩).

(٣) سبق تخريجه، ص١٤٤.

(٤) انظر: ص ١٦٦-١٦٨.

امرأة، وهي تعصد عصيدة لها، فقال: ليس هكذا تعصدين، ثم أخذ المسوط فقال: هكذا، فأراها![1].

وأخيراً، فإن عمر-رضي الله عنه-كان يعد الأمة لتحمل مثل تلك الأزمات وتقبلها، ومن وسائله لتحقيق ذلك النهي عن مداومة التنعم، والأمر بالتعود على التقشف وشظف العيش، معللاً ذلك بأن النعم لا تدوم، ويعتبر ذلك من الإجراءات الوقائية، في حال حدوث الأزمات وتغير الأحوال[2].

ثانياً:ترتيب أولويات الإنفاق:

كان عمر-رضي الله عنه-يرى تقديم سد حاجة المتضررين في عام الرمادة، وتوجيه الموارد نحو ذلك، ولا شك أن سياسة التقشف، وتقديم الإعانات للمتضررين تعني تقديم الإنفاق لتلبية حاجات المتضررين من الأزمة على بقية أوجه الإنفاق، ومع ذلك وجدت مواقف تدل على ترتيب أولويات الإنفاق بصورة مباشرة، من ذلك الآتي:

*يقول السائب بن يزيد :[ركب عمر بن الخطاب عام الرمادة دابة، فراثت شعيراً، فرآها عمر، فقال: المسلمون يموتون هَزْلا، وهذه الدابة تأكل الشعير؟ لا، والله لا أركبها حتى يحيا الناس][3]، وفي رواية:[أن عمر-رضي الله تعالى عنه-رأى في روث فرسه شعيراً في عام الرمادة، فقال: لأجعلن له من عرر النقيع ما يكفيه][4].

*[اتخذ عبدالله بن أبي ربيعة أفراساً بالمدينة، فمنعه عمر بن الخطاب، فكلموه في أن يأذن له، فقال: لا آذن له إلا أن يجيء بعلفها من غير المدينة، فكان يحمل علفها من أرض له باليمن][5].

*ومما يتعلق بترتيب الأولويات أن عمر-رضي الله عنه-كان يأمر عماله بأن ينحروا الإبل للمتضررين من أهل البادية، ولا يعطوهم الإبل أحياء؛ لأن العرب لا يقدمون على نحر الإبل ولو كانوا في حاجة لذلك، يقول عمر-رضي الله عنه-لأحد عماله[وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها،

---

(1)سبق تخريجه، ص٧١.

(2)سبق الحديث مفصلاً عن موضوع النهي عن مداومة التنعم، في الفصل الثاني من هذا الباب، انظر:ص١٥٤-١٥٧.

(3)سبق تخريجه، ص٧٥.

(4)السمهودي:وفاء الوفاء(١٠٨٩/٣)، وعرر لم أجد لها معنى يناسب السياق، ولعلها عرز، أو غرز. والعرز، والغرز: ضربان من نبات في البادية يسمى الثمام، انظر:لسان العرب(عرز، غرز)، وقد جاء في النهاية لابن الأثير(٣٥٨/٣) أن عمر-رضي الله عنه-:[رأى في المجاعة روثاً فيه شعير، فقال: لئن عشت لأجعلن له من غرز النقيع ما يغنيه عن قوت المسلمين]، أي يكفيه عن أكل الشعير، وكان الشعير يومئذ قوتاً غالباً للناس.

(5) سبق تخريجه، ص٧٥، ولم يصرح بكون ذلك في عام الرمادة، ولكنه بلا شك سيكون في ظروف تقتضي ذلك، وكونها عام الرمادة احتمال قوي لاتفاقها مع بقية الإجراءات التي اتخذها عمر رضي الله عنه.

ويحملون من ودكها، ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا](١)، وفي هذا تقديم الحاجة الآنية إلى لحوم الإبل لسد حاجة المتضررين، على حاجاتهم الأخرى في الإبل.

ثالثاً:التموين(٢):

اتبع عمر-رضي الله عنه-عدة وسائل لتموين المتضررين من تلك الأزمة، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١-وجه عمر-رضي الله عنه-موارد بيت المال لتموين المتضررين من أزمة عام الرمادة، وأنفق عليهم مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفده(٣).

٢-[وكتب عمر-رضي الله عنه-إلى أمراء الأمصار، يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة، فقسمها،...وتتابع الناس، واستغنى أهل الحجاز، وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم، وأرسل فيه الطعام إلى المدينة، فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر](٤).

٣-بالنسبة للمتضررين من الأزمة الذين نزحوا إلى المدينة، كان عمر-رضي الله عنه-يمدهم باحتياجاتهم، وأوكل بكل ناحية من يقوم عليها-كما سبق بيانه-، وكان-رضي الله عنه-[يطعم الناس من جاءه، ومن لم يأت أرسل إليه بالدقيق والتمر والأدم إلى منزله...، وكان يتعاهد مرضاهم وأكفان من مات منهم](٥)، [وكان عمر يصنع الطعام، وينادي مناديه: من أحب أن يحضر طعاماً فيأكل فليفعل، ومن أحب أن يأخذ ما يكفيه وأهله فليأت فليأخذه](٦).

---

(١)سبق تخريجه، هامش(١)، ص٣١٤.

(٢)(التموين: نظام تضعه الحكومة لتوفير الطعام والمؤن للشعب في بعض الأزمان)، المعجم الوسيط(٨٩٢/٢).

(٣) انظر: البيهقي: السنن الكبرى(٥٨١/٦-٥٨٢)، معرفة السنن والآثار(١٦٧/٥)، ابن كثير: البداية والنهاية(٩٢/٧).

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ(٣٩٧/٢)، وانظر: الطبري: المرجع السابق(٧٩/٥-٨٠)، والأمصار التي كتب إليها عمر رضي الله عنه-هي الشام والعراق ومصر، على خلاف بين المؤرخين فيما يتعلق بمصر، لاختلافهم حول تاريخ فتحها. ومدد مصر يمكن أن يفهم في ضوء ثلاثة احتمالات: **الأول**: أن مصر فتحت قبل الرمادة، كما في بعض الروايات، **الثاني**: أن آثار الرمادة قد بقيت حتى فتحت مصر، **الثالث**: أن هذا مدد مستمر، لا علاقة له بأزمة عام الرمادة، وبذلك يكون من الحلول الدائمة التي وضعت لمواجهة الأزمات في المستقبل.والله أعلم.

وانظر تفاصيل مراسلة عمر-رضي الله عنه-للأمصار، ومقادير المدد الذي أُرسل لدى: ابن سعد: المرجع السابق (٢٣٥/٣-٢٣٧، ٢٤٠)، البلاذري: المرجع السابق، ص١٩٢،٢٩١-٢٩٣، ابن شبه: المرجع السابق (٣١١/٢-٣١٢)، ابن كثير: البداية والنهاية (٩٢/٧)، ومسند الفاروق (٢٥٦/١-٢٥٧)، المتقي الهندي: كنز العمال(٦٠٩/١٢-٦١٠).

(٥) ابن سعد: المرجع السابق(٢٤١/٣)، وذكر-في الموضع نفسه- أن عمال عمر-رضي الله عنه-كانوا يقومون وقت السحر لإعداد الطعام، وكانوا يطعمون المرضى، ويعملون العصائد، ويثردون الخبز بالزيت، ويطعمون الناس.

(٦) ابن سعد: المرجع السابق(٢٣٦/٣).

٤- وأما الذين بقوا في ديارهم، ولم يأتوا إلى المدينة، فإن عمر-رضي الله عنه-كان يرسل إليهم رجالاً بالقوافل المحملة بالمؤن، ويبذل جهداً لترحيلهم إلى المدينة، ليسهل القيام بتلبية حاجاتهم، وكان يوجه رسله بمثل قوله-لأحدهم -:[اخرج في أول هذه العير فاستقبل بها نجداً، فاحمل إليّ كل أهل بيت قدرت عليهم أن تحملهم إليّ، ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه، ومرهم فليلبسوا كسائين، ولينحروا البعير فيجملوا شحمه، وليقددوا لحمه، وليحتذوا جلده، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وجفنة من دقيق، فيطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق](١).

وروى حزام بن هشام عن أبيه أنه قال:[رأيت رسل عمر فيما بين مكة والمدينة يطعمون الطعام الذي ورد من الجار من قبل عمرو](٢).

٥-وكان عمر-رضي الله عنه-يقسم المؤن مجاناً بطريقة منظمة، وذلك عن طريق كتابة الصكاك، وسيأتي بيانه(٣).

الفرع الثاني:حلول دائمة:

كانت الإجراءات السابقة حلولاً آنية لمعالجة آثار أزمة الرمادة، ولم يكتف عمر-رضي الله عنه-بذلك، بل اتخذ بعض السياسات لمواجهة الآثار الممتدة لأزمة الرمادة، ومواجهة الأزمات المماثلة التي قد تحدث في المستقبل، وهذا يدل على أهمية الاستفادة من المشكلات الحالية في الوقاية من المشكلات المشابهة في المستقبل.

ولقد كان من أهم تلك السياسات حفر خليج يربط بين الحجاز وبين مصر لتصل الإمدادات من مصر إلى الحجاز بسرعة وسهولة، يقول عمر لعمرو بن العاص-رضي الله عنهما-:[إن الله قد فتح على المسلمين مصر، وهي كثيرة الخير والطعام، وقد أُلقى في روعي-لما أحببت من الرفق بأهل الحرمين والتوسعة عليهم، حين فتح الله عليهم مصر، وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين-أن أحفر لهم خليجاً من نيلها حتى يسيل في البحر، فهو أسهل لما نريد من حمل الطعام إلى المدينة ومكة، فإن حمله

---

(١)ابن خزيمة: صحيح ابن خزيمة(٤/٦٨-٦٩)، الحاكم: المستدرك(١/٥٦٣)، واللفظ له، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وانظر: ابن كثير:مسند الفاروق(١/٢٥٧)، وكان عمر-رضي الله عنه-يرسل رسله بالمؤن إلى أفواه العراق وأفواه الشام و نجد وتهامة واليمن، انظر: ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٦)، البلاذري: المرجع السابق، ص٢٩٣، ابن شبه: المرجع السابق(٢/٣١٢)، ابن الجوزي: المرجع السابق، ص٩٧، ابن عبد الهادي:المرجع السابق(١/٣٧٠)، ومعنى يجملوا شحمه:يذيبوه، انظر: القاموس المحيط(جمل)، ومعنى يقددوا لحمه:قطعه طوالاً، انظر: القاموس المحيط(قدد)، وكبة: الكبة من الغزل ما جمع منه على شكل كرة أو اسطوانة، والمعنى يأخذوا قطعة من اللحم وقطعة من الشحم، انظر: المعجم الوسيط(كب).

(٢) البلاذري المرجع السابق،ص٢٩٣، وانظر : ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٦)، والجار: مدينة على ساحل بحر القلزم(البحر الأحمر)، بينها وبين المدينة يوم وليلة، وكانت ميناء للسفن القادمة من مصر والحبشة وعدن والصين وسائر بلاد الهند. انظر: ياقوت الحموي: المرجع السابق(٢/٩٢-٩٣).

(٣) انظر: ص٣٤٤-٣٤٥.

على الظهر يبعد ولا نبلغ منه ما نريد، فانطلق أنت وأصحابك فتشاوروا في ذلك حتى يعتدل فيه رأيكم ..][1]، ويقول بعض المؤرخين عن أثر حفر هذا الخليج:[وأصلح عمرو بن العاص بحر القلزم، وأرسل فيه الطعام إلى المدينة، فصار الطعام بالمدينة كسعر مصر، ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلها، حتى حبس عنهم البحر مع مقتل عثمان، فذلوا وتقاصروا][2].

وتذكر بعض المصادر أن عمر-رضي الله عنه-اتخذ داراً للرزق فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب والزيت وما يحتاج إليه، وكان سعد الجار يقبض ما يصل من المؤن من مصر عبر البحر، ثم يجعله في دار الدقيق ويقسمه بين الناس[3].

ولقد كان تقسيم المواد الغذائية بين مستحقيها يتم بطريقة منظمة؛ وذلك عن طريق كتابة الصكاك، حيث ورد أنه لما قدمت السفن إلى الجار وفيها الطعام، قسم عمر-رضي الله عنه-ذلك الطعام على الناس، وكتب لهم بالصكاك إلى الجار، فكانوا يخرجون ويقبضون ذلك[4]. (وتشبه هذه

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١١٢، وقد وردت عدة روايات حول حفر هذا الخليج، وبينها شيء من الاختلاف، انظر: ابن عبد الحكم : المرجع نفسه، ص١١٢-١١٤، المقريزي: الخطط المقريزية(٣/٢٤٨-٢٥٤)، وقد ذكرت تلك المصادر أن حفر ذلك الخليج استغرق سنة وأنه سمي خليج أمير المؤمنين، ومما يذكر عن استفادة المسلمين من الخليج ما ورد أن عمر-رضي الله عنه-كتب[في سنة ٢١ إلى عمرو بن العاصي يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد، ويأمره أن يحمل ما يقبض من الطعام في الخراج إلى المدينة في البحر، فكان ذلك يُحمل، ويُحمل معه الزيت]، البلاذري:فتوح البلدان،ص٣٠٣، قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة،ص٣٣٨. وقد ورد ذكر ذلك الخليج في عدة مصادر منها: ابن خزيمة: المرجع السابق(٤/٦٨)، ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٦-٢٣٧ ، ٢٤٠)، البلاذري: أنساب الأشراف، ص١٩٢، ٢٩٣، الحاكم : المرجع السابق(١/٥٦٣)، ابن كثير: مسند الفاروق(١/٢٥٧)، البداية والنهاية(٧/٩٣)، وبعض هذه المصادر ذكر إرسال عمرو بن العاص بالمدد عبر البحر إلى المدينة دون أن يصرح بحفر الخليج.

(2) ابن الأثير: المرجع السابق(٢/٣٩٧)، وانظر: الطبري: المرجع السابق(٥/٨٠)، السيوطي:حسن المحاضرة(١/١٢٤-١٢٥).

(3)انظر: البلاذري:فتوح البلدان، ص٣٠٣-٣٠٤، أنساب الأشراف، ص١٩٣، قدامة بن جعفر: المرجع السابق، ص٣٣٨، ويذكر اليعقوبي أن عمر-رضي الله عنه- عندما علم بقدوم السفن من مصر بالطعام، خرج إلى الجار، فنظر إلى السفن ثم وكل مَنْ قبض ذلك الطعام، وبنى هنالك قصرين، وجعل ذلك الطعام فيهما، انظر:تاريخ اليعقوبي(٢/١٥٤)، وسعد الجار: هو سعد بن نوفل مولى عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-كان استعمله على ميناء الجار، انظر:ياقوت الحموي: معجم البلدان(٢/٩٣)، وقد ورد أن الطعام كان ينقل من الجار إلى المدينة على إبل الصدقة، انظر: ابن أبي شيبة: المرجع السابق (٧/٩٦)، ولعل ذلك المنقول نصيب العاجزين الذين لا يستطيعون الخروج لاستلام نصيبهم في الجار.

(4) انظر:مالك: الموطأ(٢/٦٤١)، عبد الرزاق: المرجع السابق(٨/٢٩)، ابن عبد الحكم: المرجع السابق، ص١١، ابن عبد البر: المرجع السابق(١٩/٢٦٤-٢٦٥)، البيهقي: السنن الكبرى (٥/٥١٤)، المقريزي: المرجع السابق(٣/٢٥٤)، الزرقاني:شرح الزرقاني على موطأ مالك(٣/٣٦٨-٣٦٩)، المتقي الهندي: المرجع السابق(٤/٥٧٢)، ويرى ابن عبد البر أن تلك الصكاك(أو الصكوك)كانت بالطعام الخارج عليهم في ديوان العطاء، انظر: الاستذكار(١٩/٢٦٧)، وفي لسان العرب: أن الأمراء كانوا يكتبون للناس بأرزاقهم وأعطياتهم كتباً، انظر:مادة (صكك)، وهذه الصكاك ذكرها المقريزي في سياق الحديث عن حفر= =الخليج بين مصر والحجاز، ثم وصول السفن محملة بالطعام عبر هذا الخليج، وهذا يشير إلى أن صك هذه الصكوك له علاقة بأزمة الرمادة، والله أعلم.

الصكوك ما يعرف اليوم في بعض البلدان بالقسائم التموينية "البونات"؛ حيث يعين استحقاق كل شخص من بعض المواد الغذائية، بسعر مخفض، في حين يكون سعر تلك المواد في السوق الحر أعلى من ذلك السعر بنسبة جوهرية)([1])، ويقول هيكل(وكان-يعني عمر رضي الله عنه-يرسل الدقيق والتمر والأدم إلى منازل القادرين على تهيئتها شهراً بشهر؛ يوزع ذلك عليهم في نظام يشبه نظام البطاقات أيام الحروب في عهدنا الحاضر؛ يزيد فيه وينقص على قدر ما عنده)([2]).

المطلب الرابع: الوسائل المعنوية

إن الاهتمام بمعرفة بالأسباب المعنوية للأزمات، يقتضي ضرورة استخدام وسائل معنوية في معالجتها؛ فالأسباب المعنوية للأزمة لا يزيلها إلا وسائل من جنسها، لذلك تحتل تلك الوسائل المعنوية-كالأسباب المعنوية-أهمية كبيرة في الاقتصاد الإسلامي([3]).

إن الوسائل المعنوية المقصودة-هنا-تتمثل فيما يجب أن يقوم به المسلمون في الشدائد والأزمات من توبة واستغفار، وتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة، وتوجه إليه-سبحانه-بالدعاء لكشف ما حل بالمسلمين.

(وإن العديد من الاقتصاديين يتفقون على أن صلاحية المناخ الاقتصادي والاجتماعي شرط أساسي وضروري للتهيئة لعملية التنمية الاقتصادية، وإزالة العوائق من أمامها، ومعالجة أزماتها، إلا أنهم يختلفون في مفهوم هذه الصلاحية.

وفي الإسلام تعني صلاحية المناخ الاقتصادي والاجتماعي التمسك بتعاليم الإسلام وتنفيذها، وعدم الوقوع فيما نهى الله عنه، وإذا حصل شيء من المخالفات فلابد من التوبة والاستغفار، واللجوء إلى الله تعالى، وقد يتعجب القارئ المعاصر من هذا التقرير، وله أن يتعجب حيث هجرت تلك الألفاظ الشرعية، وحلت محلها مصطلحات مستوردة دخيلة([4])، ولذلك قد يبدو لفظ الاستغفار أو التوبة غريباً في مجال الكلام عن المسائل الاقتصادية، بينما تبدو عبارات "تصحيح المسار" أو "التقييم

([1])د.رفيق يونس المصري: الجامع في أصول الربا، ص٣٥٢، بتصرف، وتسمى تلك القسائم التموينية ببطاقات الجِرايات، وهي بطاقات يُحَدّد فيها الكمية التي للأفراد حق شرائها. انظر: المعجم الوسيط(جرى).

([2]) الفاروق(٢٦٨/١)، وانظر: ابن سعد: المرجع السابق(٢٤١/٣).

([3])انظر ما سبق من الحديث عن الأسباب المعنوية للأزمة، ص٣٢٧-٣٢٨.

([4])من أخطر وسائل الحرب ضد الإسلام هو الحرب ضد الألفاظ الشرعية، فلقد كان(المجتمع الإسلامي-في الماضي-يستعمل ألفاظاً تحمل مدلولات إسلامية، لا يختلف أحد في فهمها ولا في استعمالها، ولا تدور المناقشات حولها، ثم جاء الغزو العسكري للبلاد الإسلامية الذي تبعه الغزو الفكري، فعمل على تغيير الألفاظ، وتغيير مدلولاتها، ليسير المسلمون في اتجاه الحضارة الغربية ويتركون الحضارة الإسلامية...)بتصرف من مقال طويل ومهم للأستاذ علي القاضي، في مجلة "البعث الإسلامي " بعنوان " التغريب يشمل الألفاظ "، انظر ذلك وغيره مستوفى في كتاب: معجم المناهي اللفظية، لبكر بن عبدالله أبو زيد، ص٧٣-٧٩، ١٠٢-١٠٧، ٢٠٠.

الذاتي " أو "النقد الذاتي " مقبولة تماماً، وذات رنين خاص يوحي بالأهمية، والواقع أن كل عبارة من تلك العبارات تمثل جانباً من الجوانب العديدة لمفهوم الاستغفار أو التوبة سواء على مستوى الأمة أو على مستوى الأفراد)([1]).

لقد أخذ عمر-رضي الله عنه-في عام الرمادة بالوسائل المعنوية إلى جانب الوسائل المادية، وكانت الوسائل المعنوية هي السبب الذي رفع الله به الأسباب الرئيسة للأزمة، بينما أسهمت الوسائل المادية في علاج آثار تلك الأزمة.

وفيما يلي بيان لأهم ما اتخذه عمر-رضي الله عنه-من وسائل المعنوية:

أولاً:التوبة والاستغفار:

إن المؤمن يعتقد أن كل مصيبة أو أزمة تصيبه إنما هي بسبب ذنب سابق، أقله التقصير، قال الله تعالى:{وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، ويعفوا عن كثير}([2])، (فالآية داعية لكل أحد إلى المبادرة عند وقوع المصيبة إلى محاسبة النفس؛ ليعرف من أين جاء تقصيره، فيبادر إلى التوبة عنه، والإقبال على الله لينقذ نفسه من الهلكة)([3]).

ولقد أرجع عمر-رضي الله عنه-المصائب والأزمات إلى ما يحصل في المجتمعات من معاصي وسيئات، فقال-رضي الله عنه-:[إن الرجف من كثرة الزنا، وإن قحوط المطر من قضاة السوء، وأئمة الجور]([4])، وهذا يعني أنه لا بد من التوبة والاستغفار عند حصول تلك المصائب، لذلك كان عمر-رضي الله عنه-يدعو المسلمين-في عام الرمادة-إلى التوبة والاستغفار، ويقول:[أيها الناس! إني أخشى أن تكون سخطة عمتنا جميعاً؛ فاعتبوا إلى ربكم، وانزعوا وتوبوا إليه، وأحدثوا خيراً]([5])، ويذكر الشعبي أن عمر-رضي الله عنه-لما خرج يستسقي قام[على المنبر، فقرأ هذه الآيات{استغفروا ربكم إنه كان

([1]) د. عبد الرحمن يسري أحمد: دراسات في علم الاقتصاد الإسلامي، ص١٠٨-١٠٩، بتصرف.

([2]) سورة الشورى، الآية(٣٠).

([3]) البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٦٣٢/٦).

([4])سبق تخريجه، ص٣٢٧.

([5])سبق تخريجه، ص٣٢٧، وانظر آثاراً أخرى لدى: ابن سعد: المرجع السابق(٢٤٥/٣)، البلاذري: أنساب الأشراف، ص٣٢٣، وقوله: اعتبوا، من العتب، وهو طلب الرضا، انظر: ترتيب مختار الصحاح(عتب).

غفاراً}(١)، ويقول:{استغفروا ربكم ثم توبوا إليه}(٢)، ثم نزل، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ما منعك أن تستسقي؟ قال: قد طلبت المطر بمجاديح السماء التي ينزل بها المطر](٣).

ثانياً:الأعمال الصالحة:

إن التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة من الوسائل المهمة في كشف الأزمات، وزوال الكربات، ويصف ابن عمر حال أبيه في تلك الأزمة، فيقول:[كان عمر بن الخطاب أحدث في زمان الرمادة أمراً ما كان يفعله؛ لقد كان يصلي بالناس العشاء، ثم يخرج حتى يدخل بيته، فلا يزال يصلي حتى يكون آخر الليل، ثم يخرج فيأتي الأنقاب، فيطوف عليها، وإني لأسمعه ليلة في السحر وهو يقول: اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يديّ وفي ولايتي](٤).

ومن أهم الأعمال الصالحة التي يلجأ إليها المسلم في الأزمات الدعاء، فبالإضافة إلى الأدعية المطلقة، فإنه قد شُرع في مثل تلك الأزمة دعاء خاص، يسمى "الاستسقاء "؛ وهو طلب سقي الماء من الله تعالى عند حصول الجدب، على وجه مخصوص(٥).

ولقد استسقى عمر-رضي الله عنه-في عام الرمادة، ومما جاء في ذلك ما رواه أنس-رضي الله عنه-[أن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا-صلى الله عليه وسلم-فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون](٦)، وفي مرة أخرى خرج عمر يستسقي فكان من دعائه:[اللهم عجزت عنا أنصارنا،

---

(١)سورة نوح، من الآية(١٠)، وتكملة الآية{يرسل السماء عليكم مدراراً، ويمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات، ويجعل لكم أنهاراً}.

(٢) سورة هود، من الآية(٥٢)، وتكملة الآية{يرسل السماء عليكم مدراراً، ويزدكم قوة إلى قوتكم..}، ويتبين من تكملة الآيتين الربط المباشر بين الاستغفار والتوبة وبين حصول الرخاء والوفرة والقوة.

(٣)ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٤٣-٢٤٤)، ابن أبي شيبة: المرجع السابق(٦/٦١)، ابن شبه: المرجع السابق(٢/٣٠٤)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣٢٠، ابن كثير:مسند الفاروق(١/٣٣)، البداية والنهاية(٧/٩٤)، والمجاديح:واحدها مجدح، وهو نجم من النجوم الدالة على المطر، شبه الاستغفار بالأنواء، مخاطباً لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء. انظر: ابن الأثير: النهاية(١/٢٤٣)، والأثر رجاله ثقات، إلا أن الشعبي لم يسمع من عمر.

(٤) ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٣٧)، البلاذري : المرجع السابق، ص٢٩٥، و الأنقاب: جمع نقب، وهو الطريق، انظر: لسان العرب(نقب)، وعندما سالت حرة ليلى-وهي قريب من المدينة-ناراً، أمر عمر-رضي الله عنه-بالصدقة، فتصدق الناس، فانطفأت. انظر: الطبري: المرجع السابق(٥/٨٢-٨٣)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ(٢/٤٠٤)، ابن كثير: البداية والنهاية(٧/٩٨).

(٥)من المعلوم أنه قد يصحب دعاء الاستسقاء صلاة، وقد يكون دعاء بلا صلاة، انظر: ابن حجر:فتح الباري(٢/٥٧١).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث رقم(١٠١٠)، ابن كثير:جامع المسانيد(١٨/٣٣-٣٤)، وانظر: ابن حجر: المرجع السابق(٢/٥٧٧) فقد ذكر أن ذلك كان عام الرمادة، وانظر آثاراً أخرى لدى: ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٤٣-٢٤٥)، البلاذري: المرجع السابق،ص٣١٩-٣٢٤، الذهبي:سير أعلام النبلاء (٢/٩٢)، ابن كثير: المرجع السابق(٧/٩٣-٩٤).

وعجز عنا حولنا وقوتنا، وعجزت عنا أنفسنا، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم فاسقنا وأحي العباد والبلاد][1]، وقد استجاب الله دعاء المسلمين، وأنزل المطر، وسقى عباده، وكشف السنة عنهم[2].

المطلب الخامس: إجراءات استثنائية

اتخذ عمر-رضي الله عنه-بعض الإجراءات الاستثنائية[3]، من أجل التكيف مع ظروف أزمة الرمادة، وكان من أهم تلك الإجراءات ما يلي:

أولاً: تأخير جباية زكاة الماشية المتضررة من الأزمة:

روى ابن سعد عن حوشب بن بشر الفزاري عن أبيه قال:[رأيتنا عام الرمادة، وحصَّت السنة أموالنا؛ فيبقى عند العدد الكثير الشيء الذي لا ذكر له، فلم يبعث عمر تلك السنة السعاة، فلما كان قابل بعثهم، فأخذوا عقالين، فقسموا عقالاً، وقدموا عليه بعقال، فما وجد في بني فزارة كلها إلا ستين فريضة، فقُسم ثلاثون، وقُدم عليه بثلاثين][4]، ويرى أبو عبيد جواز تأخير الزكاة:[إذا رأى ذلك ذلك الإمام في صدقة المواشي، للأزمة تصيب الناس، فتجدب بلادهم، فيؤخرها عنهم إلى الخصب، ثم يقضيها منهم بالاستيفاء في العام المقبل، كالذي فعله عمر في عام الرمادة...][5].

ومن جهة ثانية فإن عمر-رضي الله عنه-كان يأمر عماله في أزمة الرمادة بقوله:[أعطوا من أبقت له السنة غنماً، ولا تعطوها من أبقت له السنة غنمين][6].

([1])الطبري: المرجع السابق(٧٩/٥)، ابن الأثير: المرجع السابق(٣٩٨/٢)

([2]) انظر: ابن شبه: المرجع السابق(٣٠٤/٢-٣٠٥)، ابن سعد: المرجع السابق(٢٤٣/٣-٢٤٥)، البلاذري: المرجع السابق، ص٣١٩-٣٢٣، والسنة: الجدب، انظر:لسان العرب(سنا).

([3]) مع أن تلك الإجراءات استثنائية؛ اقتضتها ظروف معينة، وتطبق في ظل ضوابط معينة، فقد يوجد من يجعل من هذه الاستثناءات أصولاً، يعارض بها قواعد الشرع وأحكامه وأصوله الثابتة، دون النظر لظروف تطبيقها وضوابطه، إما لسوء فهم وإما لسوء قصد، والله المستعان.

([4])المرجع السابق(٢٤٦/٣)، وقد ذُكر تأخير الزكاة في عام الرمادة في عدة مصادر، منها: أبي عبيد: المرجع السابق، ص٥٨٥، ابن زنجويه: المرجع السابق(٨٢٩/٢-٨٣٠)، ابن شبه: المرجع السابق(٣١٣/٢)، قدامة بن جعفر: المرجع السابق، ص٢٣٠، البلاذري: المرجع السابق، ص٣٢٤، وقد ضعف الشافعي أثر تأخير عمر-رضي الله عنه-الزكاة عام الرمادة، وروى عن الزهري:[أن أبا بكر وعمر-رضي الله عنهما-لم يكونا يأخذان الصدقة مثناة، ولكن يبعثان عليها في الخصب والجدب والسمن والعجف؛ لأن أخذها في كل عام من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-سُنة]، الشافعي: الأم (١٩/٢)، وهذا الأثر عن الزهري، وهو لم يدرك عمر-رضي الله عنه-، وانظر: البيهقي: السنن الكبرى(١٨٤/٤)، ومعرفة السنن والآثار(٢٥٣/٣، ٢٥٤)، عبد الرزاق: المرجع السابق(٤٢/٤)، ابن أبي شيبة: المرجع السابق(٤٣١/٢)، ابن زنجويه: المرجع السابق(٨٣١/٢، ٨٣٢)، المتقي الهندي: المرجع السابق(٥٢٦/٦)، والعقال: زكاة عام من الإبل والغنم، انظر :لسان العرب(عقل).

([5])المرجع السابق، ص٥٨٥.

([6])سبق تخريجه، ص٢٦١.

ويوضح أبو عبيد ذلك بقوله:[وهذا حديث مرسل ليس له إسناد، فإن يكن صح عن عمر فإنما وجهه عندي أنه رأى الإرخاص في ذلك إذا كان عام سنة، والسنون هي الأزمان التي تكون فيها المجاعة والجدوبة؛ فتجتاح أموال الناس ومواشيهم، حتى لا يبقى منها ذات نقي ولا در، وكذلك تصطلم الثمار والحروث قال الله تبارك وتعالى:{ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات}(١)، فعند مثل هذا رأى عمر أن يعطي من الصدقة رب المائة من الشاة، ألا تراه إنما قال: "من أبقت له السنة غنماً "، فاشترط السنة خاصة؛ لأن هذه المائة في تلك الحال لا تغني مغنى عشر شياه في الخصب؛ لما أصابها من الجدب والعجف، فرخص عند ذلك في الصدقة ترفقاً بالناس، وقد فعل بهم ما هو أكثر من هذا في عام الرمادة؛ أنه أخر عنهم الصدقة عامئذ، فلم يأخذها منهم حتى أحيوا](٢).

ويمكن التعليق على موقف عمر-رضي الله عنه-من جباية وقسم الزكاة في أزمة الرمادة بما يلي:

١-تأخير الزكاة-إن صح-فهو خاص بالأموال الزكوية المتأثرة بالأزمة، وهي الماشية، فقد هلك الكثير منها، وما بقي فإنه أصبح بدون فائدة ترجى منه؛ فلا لحم ولا لبن، بل كان الرجل إذا ذبح الشاة عام الرمادة لا يجد إلا عظماً أحمراً، وقد سبق الحديث عن أثر تلك الأزمة في الماشية(٣).

٢-وما دام أن الماشية أصبحت بتلك الحال فإنها لا تفي بحاجة مالكها، وإن كانت بأعداد كبيرة، لذلك جعل له عمر-رضي الله عنه-حقاً في الزكاة، وإن كان يملك مائة شاة.

ومن ناحية أخرى، فإنه لو أخذت الزكاة من الماشية في تلك الحال لما استفاد منها الفقراء، فكان الأجدر بقاءها بيد مالكها حتى يغيث الله البلاد، وتدب الحياة في الماشية، فتؤخذ منها زكاة سنتين(٤).

---

(١) سورة الأعراف، من الآية(١٣٠).

(٢)المرجع السابق، ص٥٥٥، والمقصود بذات النقي: بكسر فسكون: المخ، والدر: اللبن. انظر:لسان العرب(نقا، در)، والمراد أنها هزيلة ليس فيها لحم يؤكل، ولا لبن يشرب. وقوله: تصطلم الثمار؛ أي تستأصل، فالاصطلام الاستئصال، انظر: لسان العرب(صلم).

(٣) انظر :ص٣٢٩.

(٤)يرى الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي أن للإمام والساعي تأخير الزكاة عند ربها لمصلحة كقحط، انظر له: غاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى(٣٢٤/١)، وانظر أقوال الفقهاء حول تأخير الزكاة لدى :د. يوسف القرضاوي:فقه الزكاة (٨٢٧/٢-٨٢٩).

ثانياً:درء حد السرقة ما لم يتبين عدم حاجة السارق:

عن هشام بن عروة عن أبيه عن ابن حاطب[أن غلمة لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأقروا على أنفسهم، فقال عمر:يا كثير بن الصلت اذهب فاقطع أيديهم، فلما ولى بهم ردهم عمر، ثم قال: أما والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حَلّ له، لقطعت أيديهم، وايم الله إذ لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك، ثم قال:يا مزني، بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة، قال عمر:اذهب فأعطه ثمانمائة](١)، وروي أن عمر-رضي الله عنه-قال:[لا قطع في عذق، ولا في عام سنة](٢)، كما ذُكِر أن عمر-رضي الله عنه-سأل أحد عماله، فقال:[ماذا تفعل إذا جاءك سارق؟ قال: أقطع يده، قال عمر: وإذن فإن جاءني منهم جائع أو عاطل فسوف يقطع عمر يدك؛ إن الله قد استخلفنا على عباده لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا أعطيناهم هذه النعم، تقاضيناهم شكرها، يا هذا! إن الله خلق الأيدي لتعمل؛ فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية](٣).

وبموجب الأثرين السابقين فإنه إذا كانت سنة مجاعة وشدة، حتى غلب على الناس الحاجة والضرورة؛ فإنه لا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد به رمقه، وهذه شبهة قوية تدرأ القطع عن المحتاج، وعام المجاعة يكثر فيه المحاويج والمضطرون الذين لا يجدون ما يشترون أو يشترون به، ولا يتميز المستغني منهم والسارق لغير حاجة عن غيره؛ فاشتبه من يجب عليه الحد بمن لا يجب

---

(١)سبق تخريجه، ص١٢٢، وقد جاء أثر آخر فيه[أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب في ناقة نحرت، فقال له عمر:هل لك في ناقتين عشراوين مرتعتين سمينتين، بناقتك؟ فإنا لا نقطع في عام سنة]، ابن حزم: المحلى(١٢/٣٣٣-٣٣٤)، عبد الرزاق: المرجع السابق(١٠/٢٤٢-٢٤٣)، والناقة العِشار: التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر، كذا قال في ترتيب مختار الصحاح (عشر)، وقوله: مرتعتين: موطأتان، كذا قال ابن حزم في المحلى(١٢/٣٣٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق: المرجع السابق(١٠/٢٤٢)، ابن أبي شيبة: المرجع السابق(٥/٥٢١)، ابن حزم: المرجع السابق(١٢/٣٣٣-٣٣٤)، ابن قدامة: المرجع السابق(٨/٢٧٨)، ابن القيم: المرجع السابق (٣/١١)، المتقي الهندي: المرجع السابق(٥/٥٤٣)، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في التلخيص(٤/٧٨)، وانظر: الألباني: إرواء الغليل، حديث رقم (٢٤٢٨) فقد قال عن إسناد ابن أبي شيبة: ضعيف، ولم يشر إلى إسناد عبد الرزاق، وانظر أثراً بهذا المعنى لدى: عبد الرزاق: المرجع نفسه(١٠/٢٤٢-٢٤٣)، والمتقي الهندي: المرجع نفسه(٥/٥٤٥). وفي إعلام الموقعين(٣/١١):[قال السعدي:سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث، فقال: العذق: النخلة، وعام سنة: المجاعة، فقلت لأحمد: تقول به؟ فقال: إي لعمري، قلت: إن سرق في مجاعة لا تقطعه؟ فقال: لا؛ إذا حملته الحاجة على ذلك، والناس في مجاعة وشدة]. وروى عبد الرزاق-المرجع نفسه (٧/٤٠٦-٤٠٧)-[أن عمر أتي بامرأة لقيها راع بفلاة من الأرض، وهي عطشى، فاستسقته، فأبى أن يسقيها إلا أن تتركه فيقع بها، فناشدته بالله فأبى، فلما بلغت جهدها أمكنته، فدرأ عنها عمر الحد بالضرورة].

(٣)ذكر ذلك الأثر الشيخ محمد الغزالي، انظر له: ظلام من الغرب، ص١٨٩، وقال: لا يحضرني الآن سند هذه القصة. ولم أعثر على ذلك الأثر فيما رجعت إليه من مصادر.

عليه، فدرئ الحد، فإن علم أن السارق لا حاجة له، أو أنه مستغنٍ لوجود مال عنده يكفيه لسد رمقه، قُطع لسقوط الضرورة في حقه(١).

إن ما قرره عمر-رضي الله عنه-بشأن قطع يد السارق في المجاعة، فيه مراعاة لظروف الناس في تلك الأزمة، ويعني-من جهة أخرى-ضرورة إزالة أسباب الجرائم قبل إيقاع العقوبة على مرتكبي الجرائم، وهذا يتطلب أن يقيم المجتمع حياته كلها على منهج الله وشريعته، وينظم شؤونه وارتباطاته وعلاقاته على أساس ذلك المنهج، وأحكام هذه الشريعة، وفي ظل هذا النظام تهيأ الظروف المساعدة على الاستقامة عند الأسوياء من الناس، وتنحى البواعث على الجريمة من حياة الفرد والجماعة، فكل فرد في المجتمع المسلم يجب أن يحصل على كل الوسائل الضرورية لحفظ حياته؛ إما عن طريق تهيئة ظروف العمل للقادرين، وإما كفالة المجتمع-ممثلًا في الدولة-للعاجزين(٢).

وبعد ذلك فإن السارق الذي يسرق في مجتمع كفل له كل عناصر العدالة والكفاية والاستقرار والطمأنينة، وكف عنه كل عناصر الاستفزاز والإثارة، وكل عوامل الكبت والقمع، وكل عوامل الظلم والاعتداء، وكل عوامل الحاجة والضرورة، إن السارق في ظل تلك الظروف لا يسرق لسد حاجة، وإنما يسرق للطمع في الإثراء عن طريق ترويع المجتمع المسلم، فوجب إقامة الحد عليه لحماية المجتمع ونظمه وقيمه من عدوان المجرمين(٣).

ثالثاً: التكافل الاجتماعي الإلزامي:

*عن عبدالله بن عمر-رضي الله عنهما-[أن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-قال عام الرمادة-وكانت سنة شديدة ملمة، بعدما اجتهد عمر في إمداد الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف كلها مما جهدها ذلك-فقام عمر-رضي الله عنه-يدعو، فقال: اللهم اجعل رزقهم على رؤوس الجبال، فاستجاب الله له وللمسلمين، فقال حين نزل به الغيث: الحمد لله، فوالله لو لم يفرجها الله ما تركتُ أهلَ بيت من المسلمين لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء، فلم يكن اثنان ليهلكا من الطعام على ما يقيم واحداً](٤).

---

(١) انظر: ابن القيم: المرجع السابق(٣/١١-١٢)، د. رويعي بن راجح الرحيلي: فقه عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-موازناً بفقه أشهر المجتهدين(١/٢٩٠-٢٩١)، ابن قدامة: المرجع السابق(٨/٢٧٨).

(٢)انظر:سيد قطب: المرجع السابق(٢/٨٧٣، ٨٨٢-٨٨٣)، وقد سبق الحديث عن التكافل الاجتماعي بالتفصيل، وذلك في المبحث الثالث من الفصل الثالث، ص٢٥٤ وما بعدها.

(٣)انظر:سيد قطب: المرجع السابق، الصفحات نفسها، عبد الرحمن عبد الخالق:وجوب تطبيق الحدود الشرعية، ص٢٦-٢٧، د. حسين حامد حسان:مقابلة في مجلة الاقتصاد الإسلامي، العدد(١٦٢)، جمادى الأولى ١٤١٥هـ، ص١٩.

(٤)سبق تخريجه، ص٢٨٧.

*قال الشافعي: وقد روي عن عمر–رضي الله عنه–أنه قال:[لئن أصاب الناس سنين، لأنفقن عليهم من مال الله، حتى لا أجد درهماً، فإذا لم أجد درهماً ألزمت كل رجل رجلاً](١).

يبين الأثران السابقان–وغيرهما–أن عمر–رضي الله عنه–كان قد أعد خطة احتياطية لتطبيقها في حال استمرار الأزمة، ونفاد ما في بيت المال، وتتمثل تلك الخطة في نوع من التكافل الاجتماعي الواجب، الذي يلزم به ولي الأمر جميع القادرين؛ إما بالتوظيف عليهم في أموالهم بقدر الحاجة، أو أن يدخل على أهل كل بيت من القادرين عددهم ممن لا يجدون الطعام.

إن هذا التكافل إجراء استثنائي يفرض في مثل تلك الأزمة، وقد سبق الحديث عنه مفصلاً عند الحديث عن التكافل الاجتماعي في الفصل الثالث من هذا الباب(٢).

رابعاً: إخراج الأعراب من المدينة إلى باديتهم:

فقد أمر عمر–رضي الله عنه–الأعراب الذين نزحوا إلى المدينة بسبب الأزمة–بالخروج إلى باديتهم بعد أن من الله عليهم بالمطر، وزالت أسباب نزوحهم إلى المدينة، وكان يقول لهم: [أخرجوا من القرية إلى ما كنتم اعتدتم من البرية، فجعل عمر يحمل الضعيف منهم حتى لحقوا ببلادهم](٣)، وفي رواية أن عمر–رضي الله عنه–لما رفعت الأزمة وكَّل كل قوم –ممن عينهم للإشراف على تموين النازحين–بناحيتهم؛ [يخرجونهم إلى البادية، ويعطونهم قوتاً وحملاناً إلى باديتهم، يقول الراوي:ولقد رأيت عمر يخرجهم هو بنفسه](٤).

إن إخراج عمر–رضي الله عنه–الأعراب إلى باديتهم، بعد انتهاء الأزمة، يحقق عدة نتائج إيجابية، أهمها ما يلي:

١–تخفيف الكثافة السكانية في المدينة، حيث اكتظت بالسكان النازحين إثر الأزمة، حتى عجزت مواردها عن استيعابهم.

٢–هؤلاء الأعراب يعيشون على الرعي وتربية الماشية، وبالتالي فإن بقاءهم بالمدينة يؤدي إلى إهمال ذلك النشاط، وهو نشاط مهم وأساسي، ومن جهة ثانية فإن هؤلاء لو بقوا في المدينة فإنهم قد لا يستطيعون مزاولة نشاط آخر غير ما عرفوه من الرعي وتربية الماشية، وبالتالي يصبحون عاطلين عن العمل.

---

(١)سبق تخريجه، ص٢٨٧.

(٢) انظر: ص٢٨٦–٢٨٨، وفيما يتعلق بمعالجة عمر–رضي الله عنه–لما نتج عن أزمة الرمادة من احتكار وارتفاع في الأسعار، فسوف يكون الحديث ضمن الحديث عن موقف عمر–رضي الله عنه–من الاحتكار والتسعير بصفة عامة، وذلك في الفصل الأول من الباب الثالث، ص٥٥٦–٥٦١، ٥٦٣–٥٧٠.

(٣) ابن سعد: المرجع السابق(٣/٢٤١).

(٤) المرجع نفسه(٣/٢٤١)، وانظر: (٣/٢٤٤–٢٤٥)من المرجع نفسه.

٣-كان عمر-رضي الله عنه- يحرص على بقاء العربية الفصيحة، ولا شك أن بقاء الأعراب في باديتهم غير مختلطين بغيرهم من عوامل المحافظة على لغة العرب وعاداتهم الحسنة.

وبعد ما سبق يمكن القول بأن طريقة عمر-رضي الله عنه-في معالجة أزمة الرمادة عبارة عن مبادئ لعلاج الأزمات في كل زمان، فينبغي أن تكون درساً يستفيد منه المسلمون في معالجة الأزمات التي يتعرضون لها في كل زمان ومكان، مع ضرورة الاستفادة من الوسائل المتاحة في كل عصر.

وفيما يلي تلخيص لأهم المبادئ التي ارتكزت عليها معالجة عمر-رضي الله عنه-لأزمة الرمادة:

أولاً:السلوك الشخصي لولي الأمر وأهله وعماله؛ فقد ضرب عمر-رضي الله عنه-أروع الأمثلة لما ينبغي أن يكون عليه ولي الأمر في الأزمات، وأهم معالم سلوكه الشخصي في تلك الأزمة ما يلي:

*الشعور بالمسؤولية المباشرة عن الأزمة وما يترتب عليها من أضرار بالأمة، حتى خشي الصحابة أن يموت عمر-رضي الله عنه-هماً بأمر المسلمين، لو لم يرفع الله الأزمة.

*ينبغي أن يعاني ولي الأمر ما تعانيه رعيته في الأزمات، ويذوق بنفسه ألم الحرمان، ليعتني بمشكلات المتضررين والمحتاجين، كما أن ذلك يجعل الرعية أكثر صبراً على شدة الأزمة عندما يرون ولي أمرهم يشاركهم في تحمل أعبائها، ولقد لخص عمر-رضي الله عنه-ذلك بقوله: [كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم؟].

*جعل عمر-رضي الله عنه-من نفسه وأهله وعماله قدوة للأمة في تلك الأزمة، حيث كان أول المبادرين إلى الالتزام بما يطلب من الأمة فعله، وكان يأمر أهله بذلك قبل أن يأمر الرعية، ويشدد على المخالفين من أهله وعماله.

ثانياً: استغل عمر-رضي الله عنه-كل الإمكانات المادية المتاحة في عصره لمعالجة تلك الأزمة، ولتحقيق ذلك اتبع الخطوات التالية:

*اتباع سياسة التقشف، وترشيد الإنفاق، وتوجيه الموارد نحو معالجة الأزمة، وتموين القريب والبعيد من المتضررين بالأزمة، ومراسلة الأقاليم الأخرى لإرسال المدد، وفي هذا بيان لوجوب تكافل المسلمين في الشدائد والأزمات مهما تباعدت أوطانهم.

ومن جهة ثانية، فإن عمر-رضي الله عنه-كان يعد الأمة لتحمل الأزمات، وذلك عن طريق نهيه الشديد عن مداومة التنعم، والتعود على التقشف وشظف العيش.

*اتخذ عمر-رضي الله عنه-حلولاً آنية لرفع آثار الأزمة عن الأمة، كما أنه وضع حلولاً دائمة لمواجهة الأزمات في المستقبل.

ثالثاً:لم تكن معالجة عمر-رضي الله عنه-لأزمة عام الرمادة عشوائية، بل تمت بطريقة منظمة، اتبع فيها أرقى الأساليب الإدارية المعروفة في عصره، بل يمكن القول بأنه قد اتبع أهم المبادئ الإدارية التي عرفتها الإنسانية في العصر الحديث.

رابعاً: كما اجتهد عمر-رضي الله عنه-لمعرفة الأسباب المعنوية للأزمة، فإنه-أيضاً-قد اجتهد في اتخاذ الوسائل المعنوية لرفع تلك الأزمة؛ وإذا كانت الأسباب المعنوية تتمثل في الذنوب والمعاصي، فإن الوسائل المعنوية تتمثل في التوبة والاستغفار، والتقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، والتوجه إليه بالدعاء لكشف البلاء عن الأمة، وقد اهتم عمر-رضي الله عنه-بتلك الوسائل، وجعلها الأساس في معالجة الأزمة، فاستجاب الله تعالى دعاء المسلمين، ورفع عنهم الجدب وأنزل المطر.

وهكذا لم يهمل عمر-رضي الله عنه-أياً من الوسائل المادية والمعنوية لمعالجة تلك الأزمة، مما يدل على ترابطهما، وضرورة الأخذ بهما جميعاً.

إن المسلمين اليوم-وكل يوم-مدعوون للأخذ بالوسائل المادية والمعنوية للتغلب على مشكلاتهم الاقتصادية وغيرها.

وكما أن عدم الاهتمام بالتعرف على الأسباب المعنوية للأزمات قد أدى إلى التخلف واستمراره، فإن عدم الأخذ بالوسائل المعنوية تسبب-أيضاً-في عدم نجاح أية محاولة للنهوض، كما ترتب عليه عدم التوفيق للأخذ بالوسائل المادية.

خامساً: تميزت معالجة عمر-رضي الله عنه-لتلك الأزمة بالمرونة؛ ويتمثل ذلك في مراعاة الظروف التي أحدثتها الأزمة، حيث اتخذ عمر-رضي الله عنه-بعض الإجراءات الاستثنائية للتكيف مع تلك الظروف، وبإمكان المسلمين الاستفادة من ذلك عند معالجتهم للأزمات والمشكلات الاقتصادية-وغير الاقتصادية-بشرط ألا يتعارض ذلك مع نصوص الشرع وقواعده الثابتة.